مذاهب وشخصيات

علماء

في وجه الطغيان

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون

بقلم
محمد رجب البيومي

تقديم

سبق للدار القومية أن نشرت للمؤلف كتابا بعنوان «ابن حنبل» . وكان له صداه الطيب عند جمهرة المثقفين ، واليوم نقدم له كتابا آخر «علماء فى وجه الطغيان» حيث اتخذ المؤلف مواقف لأعلام من التاريخ الاسلامى فيها روعة التمسك بالحق ، والدفاع عن المبدأ ، وان كلفتهم أرواحهم .

هذه هى البطولة الحقة التى تتجلى فيها النفوس الكبيرة ، وتخلق العظمة الروحية . وتاريخنا الاسلامى حافل بعظماء الرجال الذين لم يستذلهم المنصب أو السلطان ولم يغرهم المال . ولم تنل منهم رهبة الموت أو بريق السيف بل قالوا كلمة الحق ، قالوها عالية مدوية فى وجه الطغيان وبوقوفهم هذا الموقف النبيل استطاعوا أن يكسروا من حدة الجبروت ، وان يردوا الظالم عن ظلمه وأن يبينوا بالمنطق والحجة مبلغ مافى قولهم من صحة وسلامة .

ولا شك أن ناشئتنا فى امس الحاجة الى التعرف على مواقف البطوله التى وقفها عظماؤنا حتى يستقر فى نفوسهم التمسك بالحق والدفاع عن المبدأ ، وبخاصة فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا التى نقيم فيها بناء مجتمعنا الجديد ، وندافع عن المبادىء الاشتراكية التى اتخذناها دستورا لنا ، والتى تحاول الرجعية بكل الوسائل أن تحول بينها وبين الاستقرار .

ان المبادىء والرسالات لايمكن أن تنتشر وان تسود الا بالدفاع عنها والتضحية فى سبيلها والنضال من أجلها ، وهذا يتطلب ايمانا عميقا ، واخلاصا مكينا وكفاحا رهيبا كهذا الكفاح الذى عرض المؤلف أمثلة رائعة له .

وناشئتنا فى حاجة أيضا الى أن يتعرفوا على هذه المواقف البطولية، حتى يؤمنوا بعظمة آبائهم وأجدادهم ، وانهم لايقلون شأنا ان لم يفوقوا عظماء الغرب فى الدفاع عن العقيدة والمبدأ .

والله الموفق والمعين

محمد عطا

مقدمة

حين أصدر الكاتب الكبير الاستاذ توفيق الحكيم مسرحيته التاريخية «السلطان الحائر» صادفت قبولا رائعا لدى القراء ، اذ صورت بعض المواقف الجريئة التى وقفها العالم البطل عز الدين بن عبد السلام حين تحدى الظلمة الطغاة من الملوك والأمراء ، ورفع راية الحق فى وجوه أعدائه غير هياب ، وقد مثل بمواقفه البـاهرة أدوار المصلحين من الأنبياء وذوى الرسالات ، فكان قمة شامخة فى دنيا البطولة والايمان ٠

وقد قابلنى من جمهرة المثقفين من يدهش لبطولة العز ويعده فذا غريبا فى تاريخ العلماء ، ويعتبره من الشاذ النادر الذى لاتتمخض الاجيال عن نظيره الا بعد عسر جاهد ، وشح ضنين ، مع أن التاريخ الاسلامى حافل بأمثاله ممن صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فأعلوا كلمة الله فى معترك الطغيان ٠

لذلك رأيت أن أفرد لهؤلاء الابطال كتابا وجيزا يتحدث فى سرعة طائرة عن بعض روائعهم الباهرة ، متجها الى تصوير هذه الأدوار الحاسمة من مواقفهم الفذة دون اسهاب فيما عداها من جهودهم العلمية والفكرية لان كل عالم من هؤلاء جدير أن يفرد له كتاب مستقل بتاريخه ،على نحو ماصنعت بتاريخ الامام احمد حين أفردت له سفرا خاصا بشخصيته ، وحسبى هنا أن أشير وأوجه ، تاركا لغيرى المزيد من التحليل والتشريح ٠

ولست أزعم أن هؤلاء الاعلام هم جميع من تعطرت ببطولتهم صحف التاريخ ، فهناك عشرات من أمثالهم يستحقون الدراسة والتسجيل وفى مكنة الباحث الضليع أن يجد فى كل حقبة من الحقب السالفة نمطا رائعا من ذوى البسالة العجيبة فى طبقات العلماء ، وهأنذا أخطو الخطوة الاولى راجيا أن أواصل السير مع غيرى ، ممن يعرفون من واقع هؤلاء الأئمة مايضع حيواتهم نماذج حية لشبابنا المثقفين ، ممن يستغربون مواقف العز بن عبد السلام ، ويعتبرونها استثناء يخرج على القاعدة ، لا نمطا مألوفا فى كثير من حيوات رجال الاسلام ٠

ان تاريخنا الاسلامى الرائع لم يكتب للآن على وجهه الصحيح ، اذ أن الكثرة من مؤلفى القرون السابقة قد اتجهت الى تسجيل مواقف الخلفاء والوزراء والأمراء ، وحسبت ذلك أنفس مايقال فى مضمار التاريخ ، ومن

يتعرضون من كتاب (الطبقات) لتواريخ العلماء والمصلحين لا يعمدون الى التفصيل الشافي لكل موقف خالد ، ولكنهم يلمون به المامة المتسرع العجول ، وعلينا الآن أن نتجنب هذا التقصير المعيب ، فنفسح المجال لذوى العظمة الباهرة ممن قدروا تبعات البطولة وحملوا رسالة العلم على وجهها الصحيح .

لو أن تاريخنا الباهر قد كتب كتابة وافية ، لما رأينا من سباب الجامعات من يعد العز واحدا لاثانى له . بل من يجهل العز حتى يلفته اليه كاتب مسرحى شهير ! فهل جاءهم أن زملاء العز من ورثة الانبياء قد مثلوا دوره البطولى على مر التاريخ ، فسموا الى قمم الابطال ؟ هل جاءهم أن سعيد ابن المسيب قد حارب الخلافة الاموية . وترفع على عبد الملك وولى العهد كيلا يسير مع الباطل فى طريق ؟

هل جاءهم أن سعيد بن جبير قد حاصم الحجاج . واعلن الثورة الجريئة على طغيانه ، ثم استهزأ به فى ساحة المحاكمة بين السيف والنطع حتى ظفر بالاستشهاد ؟

هل جاءهم أن أبا حنيفة قد اعتز بالله حين حارب الدولة الاموية فى عناد ، ثم كافح أبا جعفر المنصور حين رآه يحيد عن الجادة المستقيمة ، فانهالت السياط المائة على جسده الناحل جلدا وتعذيبا ، ولم يخش الا الله ؟

هل جاءهم أن ابن حنبل قد واجه طغيان المأمون والمعتصم والواثق بنفس قوية عزيزة ، وتحمل عذاب السجن والسوط حتى أغمى عليه مرات دون اكتراث ؟

هل جاءهم أن ابن السكيت قد استشهد فى ساحة الحق ، ولقى الله راضيا فخورا بمصرعه الباهر على رءوس الأشهاد ؟

هل جاءهم أن العز بن عبد السلام قد ترك من العلماء مدرسة جريئة حاربت طغيان سلاطين المماليك ومموك التتار ، وكان من تلاميذه الأبطال محيى الدين النووى ، وابن دقيق العيد وابن تيمية وسواهم من الأفذاذ ؟

هل جاءهم ثبات المنذر بن سعيد فى وجه الناصر بالأندلس أو روائع عمرو بن عبيد ويحيى بن يعمر وابى جعفر البهلول بالكوفة وبغداد ؟

هل نظروا الى تاريخهم القريب . فعرفوا جهاد علماء الأزهر فى عهد المماليك والفرنسيين ، وألموا بنضال الجبرتى والعروسى والمنصورى والدردير ؟

هل جهلوا باعث الشرق ومنقذه جمال الدين الأفغانى ، أو نسوا ماشاهدوه عيانا من روائع عبد المجيد سليم !

أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون !

وانى حين أبسط هذه المواقف فى صفحات هذا الكتاب أشعر أنى أكتب دروس اخلاق وتربية ، قبل أن أسجل حوادث أناس وعصور ، لان القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة جديرة أن تجعل من الناشئة رجالا بسلاء ، يتخذون من أسلافهم الغابرين أنماطا تحتذى ، وكواكب تهدى ، فتتحقق بذلك وراثة العلماء للأنبياء اذ لاتقتصر على المعرفة والافتداء بل تتجه الى العمل الجرىء والاصلاح المثمر والاستمساك بقول الله عز وجل «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون» .

أحمد رجب البيومى

سعيد بن المسيب يتحدى الخلافة

سيرة سعيد بن المسيب لغير العجب والاعجاب ، فقد كان رضى الله عنه . يعرف قدر نفسه ، ويزن قيمة علمـــــه ، وقد ارتفع بغرائزه عن الرغبات البشرية التهافتة ! وسما بروحه الى أجواز العزة والكرامة . فعاش كريم النفس حميدالأثر ، وكان مثلا رائعا تقدمه التربية الاسلامية الصحيحة الى عشاق العزة والكرامة ، فما تعاظم يوما على فقير محتاج ! وما حشـــع لحظة لطاغية جبار ، بل كان يعظم أهل المسكنة ويسعى فى حوائجهم باذلا من جهده وماله ــ على تقدم السن وتأخر العافية ــ مايستطيع . أما الطغاة من الملوك ، والفجرة من الولاة فقد جابههم مجابهات سافرة . وامتنع عن لقائهم ومجالستهم ، وزاد فندد بفضائحهم المنكرة ومظالمهم الآثمة . وبهذه السيرة الرفيعة ، قد نهج نهجه الصالح فى الحياة . فارى الناس كيف يكون عالم الاسلام رحيم القلب مع الضعفاء ، عزيز الجانب لدى الأقوياء ، فلا تأخذه فى الله لومة لائم ، بل يهتف بالحق الصريح . وان لعت الأســـنة واشتجرت الرماح .

وقد نشا الرجل نشاة مباركة ، فزكى غرسه فى تربة طيبة . وسائله كبار الصحابة ، وجالس اهل الورع والخشية من جند الله واتجه الى الفقه الاسلامى يبحث مسائله ، ويناقش فروعه . والى الحديث المحمدى يصحب رجاله ، ويفحص اسناده . وكانت المدينة تعهده زاخرة باعلام الشريعة من صحابة رسول الله ، فسمع من على وابن عمر وسعد وابن عباس وأبى الدرداء ، وصهيب وجابر وأبى سعيد ، وأسماء . وعائشة وام ســـلمة وغيرهم ؛ ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ! أما ابو هريرة شيخ المحدثين ، فقد لزم مجلسه ، واستظهر أحاديثه ، وبلغ من نفسه مبلغا كبيرا ، حتى تزوج ابنته متساقا ، بدافع الرغبة الكريمة . فى مصاهرة انســان يحفظ حديث رسول الله ! وقد تلقى ــ بمخالطته صحابة رسول الله ــ دروسا رفيعة فى الأخلاق العالية ، والكرامة الأبية اذ شاهد بعينيه ما أســبغه الاسلام من العزة على أناس لم يذعنوا لغير الله ، ورأى من حرية العقيدة وشدة الحمية وقداسة المساواة مارسم له الطريق السوى للمؤمن العريق الذى يتخذ القرآن امامه ، ومحمدا قائده ، ويعلم أن الله من ورائه يقدر الحسنات ، ويحصى السيئات ؛ ويقيم الميزان العادل اذ يقول : «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وقد وهب الرجل ذكاء نافذا ، وحافظة بارعة . فاستوعب جميع ماعرض عليه ، واستشف روح الاسلام من الأحاديث والآيات استشفافا يلج الى الأعماق . ويرجع بالمتفرقات المتباعدة الى أصول ثابتة الدعائم ، وطيدة الأركان : حتى اشتهر فى نشأته الباكرة بالعلم . واعترف ذوو الفضل من الصحابة والتابعين ومن وليهم ، بما شرف قدره وأعلى مكانته ، فقد كان عبد الله بن عمر اذا سئل عن الأمر يشكل عليه يقول : سلوا سعيدا فقد جالس الصالحين . وقال على بن الحسين : سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار . وأفقههم فى زمانه . وقال قتادة : مارأيت أعلم بالحلال والحرام منه ، وقال مكحول : طفت الارض فما وجدت أعلم منه !! وهذه الأقوال وأمثالها لم تكن تقريظا زائفا يدفع الى التزلف والمحاباة ، انما صدرت عن أناس لاحاجة لهم فى تملق سعيد . وهم — بعد — يعلمون أنهم محاسبون على مايقولون ! ولو عاش الرجل فى عهد الكتابة والتدوين لرأينا من آرائه وفتاواه مايحدد موضعه فى الفقه الاسلامى ، ولكنا نعلم ان الذين تناقلوا مسائل التشريع ودرسوا قضاياه جعلوه اماما يصدرون عنه ، فقد ذكر مالك والشافعى واحمد واصحاب أبى حنيفة آراءه واستشهدوا بما تنوقل من فتاواه ! ومالنا نبعد ونحن نعلم ، أن عمر بن عبد العزيز ومحمد بن شهاب ، وعمرو بن دينار ، وعطاء بن رباح ومحمد ابن الباقر ويحيى بن سعيد من تلاميذه . ولن يخرج هؤلاء غير فقيه عظيم !

وكان الفقه لعهد الرجل لايقتصر على ماهو مصطلح عليه الآن من معرفة الاحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية بل كان يشمل جميع مايتصل بالاسلام من سيرة وتاريخ وتوحيد وأخلاق وارشاد ، اذ أن الفقه — فى العهد الأول — كان يطلق كما يقول الغزالى فى « الاحياء » على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة . وهذا المعنى الشامل المتسع ، قد نوع معارف سعيد ، واتجه به — مع دراسته مسائل العبادات والمعاملات — الى تفهم أسرار النفوس من جهة ، والى الورع والتحفظ من جهة ثانية ! وتظهر الناحية الاولى فى براعته الخارقة فى تأويل الأحلام ، اذ أن دراسته للنفوس قد كانت — مع غيرها — مددا زاخرا يستمد منه عناصر التأويل ، واذا كان علماء النفس يعتمدون الآن فى تفسير الاحلام على دراسة العقل الباطن وحده ، واستكناه رموزه ومعرفة أعماقه السحيقة فى الماضى النازح ، فان سعيدا — مع خبرته النفسية بمن يخاطبه واحاطته بنوازعه وخوالجه ، كان يعتمد فى التأويل على استشفاف روحى توحيه الفطرة الخالصة ، ويدعمه البصر بالمنازع والأهواء كما يمده الايمان القوى بشعاع مشرق يكشف له الغوامض وينير الطريق .

قال شريك بن نمر : قلت لابن المسيب : رأيت فى النوم كأن أسنانى

سقطت فى يدى ثم دفنتها ؟ فقال : ستدفن أسنانك من أهل بيتك - فكان ذلك ·

وقال رجل : انه رأى فى النوم كأنه يخوض النار ، فقال سعيد ان صدقت رؤياك فلن تموت حتى تركب البحر وتصرع ، فكان ذاك ·

وقال الحصين بن عبيد : طلبت الولد فلم يولد ، فقلت لابن المسيب انى أرى أنه طرح فى مجرى بيض ، فقال ابن المسيب : البيض أعجمى - فاطلب سببا الى العجم ، فسريت : فولد لى ·

هذا التفسير الصادق يجعلنا نشك كثيرا فيما يؤكده أنصار «فرويد» من أن العقل الباطن وحده هو مفتاح التأويل . ولا بد من التحليل الدقيق حتى ندرس الأغوار السحيقة فى حياة الرجل . أقول : نشك فى ذلك كثيرا ، لانه يغفل الاستشفاف الروحى اغفالا تاما ، ولا يلجأ فى حل الرمز الغامض الى مقارنة الشبيه بالشبيه . والنظير بالنظير كما يفعل سعيد ! وعلى هؤلاء أن يضيفوا الى التحليل النفسى ـ الصادق فى بعض حوادثه ـ شيئا من البصر الحاذق والاستشفاف النافذ . ولن يكون ذلك بغير الهام سماوى يمده الايمان ويدعمه الاخلاص !

أما تقواه ونسكه وتقشفه فقد ازدحمت بها الاخبار المتواترة . وما ظنك برجل واظب على حضور الجماعة أربعين سنة لايشذ عنها وقتا واحدا ، واعتلت عينه يوما فقيل له : لو خرجت الى العقيق ونظرت الى الخضرة لنفع ذاك · فقال : وكيف أصنع بشهود العتمة والصبح ! وقد كان يتابع الصوم ويسرده سردا . أما الحج فقد أكثر منه على تقدم السن وضعف البنية . ووعورة الطريق ! ومع هذا التفانى فى العبادة ، فقد نقلت عنه أقوال ترسم السبيل السوى لمؤمن المناضل فى الحياة . فقد قال له مولاه برد : مارأيت أحسن مما يصنع هؤلاء ! فقال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلى أحدهم الظهر ثم لايزال صافا رجليه يصلى حتى العصر ! فقال سعيد : ويحك يابرد ، أما والله ما العبادة هذه . انما العبادة الكف عن محارم الله . والتفكر فى أمره وإذن فالعابد التقى هو الذى يسعى الى رزقه مجتنبا محارم ربه · ولن تنفعه عبادته وأعماله تتلوى . وأطفاله يتضورون · وهذه الخبرة الدقيقة بحقائق العبادة وأوهام الناس جعلته يصدر آراءه عن تجربة ملموسة ، وعين ترى ، وأذن تسمع ! فهو يقول : ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل الا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لاينبغى أن تذكر عيوبه؛ فمن كان فضله أكبر من نقصه وهب نقصه لفضله ! هذه الخبرة الدقيقة بالنفوس ، جعلته يرثى للبشرية فيتجاوز عن هناتها ويؤثر الصفح والاغضاء عمن تبدر فى أعماله نوازع الخير ، عسى أن تطغى هذه النوازع الصالحة

يوما فترفع صاحبها عن الضعف الانسانى ، وما يعقبه من مهلكات قواتل ! !

على أن اغراق الرجل فى عبادته لم يصرفه عن السعى وراء رزقه ، فقد رفض عطاءه من بيت المال ، واندفع يتاجر فى الزيت ليعتصر طعامه من حلاله الصريح ، وليتحرر من رق هذه النفوس اللئيمة التى تعطى باليمين لتأخذ بالشمال وتمنح مال الله لأربابه لتضع اغلالا من المنن ، فى الرقاب فتسترق الاحرار وتحنى الرءوس !

لقد كان العصر الأموى ـ لعهد سعيد ـ عصر منافع واستغلال ، فالأمراء والولاة لا يسيرون على سنن الراشدين من الخلفاء ، وقد بذلوا جهودهم المضنية فى تدعيم الملك باجتذاب الانصار واغراء النفوس بالمال والمنصب والنفوذ ، وقد رأوا التفاف العامة حول سعيد وتعظيمهم اياه ، فارادوا أن يجذبوه الى ساحتهم ، ليلوذوا بركن وطيد من تعضيده وسعيد يعلم انهم أهل جور ومظلمة ، فيرفض كل رجاء يقدم منهم اليه ، ويراهم دونه فى كل شىء ، حيث قد اعتز بتقوى الله ؛ وذلوا بمعصيته ، وهو لايفتأ يعلن رأيه صريحا شهيرا فى مناوأتهم الصريحة دون أن يأبه لعاقبة تسوء ، أو طامة تعم ، وقد أراد عبد الملك أن يخطب ابنة سعيد لولى عهده «الوليد» فيكسب بذلك محبة فى القلوب ، ويتخذ من سعيد دعامة تجذب نحوه الأنصار والأتباع ، ولكن ابن المسيب يحتقر رغائب الحياة وينظر فى صغار شائن الى مقاييسها الواهنة فى منطق الدهماء ، فيرفض أن تكون ابنته أعظم سيدة فى المملكة الاسلامية ! يرفض ذلك ويستهوله ! لانه ينكر أن يكون مطية لظالم ، أو خديعة لشعب مرهق ذليل ! ثم ماذا ؟ يعجل بزفاف وليدته الى طالب علم فقير لايملك غير قوت يومه ! فأى ملاك هذا الذى سما بانسانيته الرفيعة فوق المقاييس الهابطة ، الى أوج رحيب تضيئه العزة ويغمره الجلال .

قال يحيى بن سعيد : كان لسعيد جليس يقال له عبد الله بن وداعة فأبطأ عنه أياما ، فسأل عنه وطلبه ، فأتاه معتذرا عن تأخره بمرض زوجته وموتها ، فقال له : ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها ؛ أو بموتها فنشهد جنازتها ثم قال : ياعبد الله تزوج ، ولا تلق الله وأنت أعزب ، فقال : يرحمك الله ومن يزوجنى وانا فقير ؟ فقال سعيد : أنا أزوجك ابنتى ، فقال عبد الله : فسكت استحياء واستعظاما ، فقال سعيد : مالك سكت ، أسخطا واعراضا؟ قلت : وأين أنا منها ؟ فقال قم وادع نفرا من الانصار ، فدعوت له فاشهدهم على النكاح ، فلما صلينا العشاء الآخرة توجه سعيد بابنته الى الرجل الفقير ومعها الخادم والدراهم والطعام ، والزوج لايكاد يصدق ماهو فيه ! فليت شعرى من سمع قبل ذلك بانسان يرفض مصاهرة الخليفة ، ويدفع بابنته

الى طالب علم فقير ! الا أن يكون عالما رفعه الاسلام من حضيض البشرية الطامعة الى سماء المثالية الرائعة ؛ ذلكم هو سعيد !

وقد كان النزاع بين الامويين والزبيريين على أشده بالمدينة . وكل حزب يجتذب من الأشياع من يشد عضده ويقوى شوكته ، وقد اتجهت أنظار الفريقين الى سعيد ، والرجل في قرارة نفسه لايؤمن بهما معا ، ويرى الخلافة الاسلامية قد انحرفت عن نهجها الذى عرفه أيام عمر وعلى ! ولكن الرسل من الجانبين يتوافدون عليه وكلمة الحق تصرخ في فمه فتدمغ الباطل فينحدر ، وقد أرق أولو الأمر لمخالفة سعيد ، وامتحن امتحانا رهيبا من الطائفتين ، فما تراجع عن رأى أو نكص عن حق بل ظل كالطود الشامخ ناهضا يندد بالطغاة ، ويرى الملأ كيف يقف الحق الأعزل في وجه الباطل المدجج ، وكيف يحرص المسلم الأبى على كلمة الحق وان حال دونه الباطل بسياطه وحرابه ، فلن يصيب الا جلدا وعظما ! أما النفس المؤمنة فمطمئنة بايمانها ملتذة بعذابها ، منتظرة مثوبة الله لأصفيائه . ونكال الآخرة والأولى لذوى البهتان الآثم ، والطغيان الرهيب !

هذا جابر بن الاسود عامل عبد الله بن الزبير على المدينة يأمره بالبيعه فيمتنع ، فيضربه ستين سوطا ، فما تراجع عن موقفه ويرى ذلك هينا في سبيل الله !

وهذا عامل عبد الملك على المدينة يأمره بالبيعة للوليد بن عبد الملك فيمتنع ، فيهدده بضرب عنقه ، فما يتراجع خطة عن موضعه ، ثم يطول الحوار والجدل ، فيعرض عليه واحدة من خصال ثلاث : أن يقرأ الوالى كتاب البيعة على الجمهور فيسكت سعيد دون أن يقول لا أو نعم ، أو أن يجلس في البيت فلا ينهض الى المسجد أياما حتى تنتهى البيعة ، أو أن ينتقل من مكانه بالمسجد فلا يجده الرسول اذ يأتيه ، وقد رفض سعيد هذه العروض وكان له في العرض الاخير مندوحة تقيه دون أن تخدش رأيه ، ولكنه وضع نفسه موضع الزعامة الكريمة للمسلم الصادق ليسمد كل ثنية يلج بها الباطل مأربه ، فهو أولا يخشى أن يخرج بالصمت عن لا ونعم ، فيعلم الناس انه بايع ولم يعارض ، وهو ثانيا يتعاظمه أن يمكث بالبيت أياما فلا يخرج الى الصلاة وصوت المؤذن يلهبه ويستدعيه وهو ثالثا يربأ بنفسه أن ينتقل من مكانه حذرا من مخلوق لايملك لنفسه ضرا أو نفعا !

وكان سعيد يعلم حقيقة ماينتظره من عذاب أثيم ، فما أن أعلن مخالفته حتى جرد من ثيابه ، وضرب خمسين سوطا ، وطاف به الرعاع في أسواق المدينة ، وهم يقولون : هذا موقف الخزى ! فيرد عليهم في يقين حازم : بل فرزنا من الخزى يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه !

هذه المحن السود تمر بالمؤمن فتزيده يقينا وايمانا ، ثم تنجلى غمرتها الغاشية عن روعة واستبشار ، فالظالم يتخاذل ويتقهقر ، حين يجد عقوبته الظالمة قد عادت على غريمه بالعزة وارتفاع الذكر وبعد الصيت !! وهـذا ماستشعره بنو مروان ، فقد أسفوا لما صنعوا ، وهموا باسترضاء الرجل مرات فما أبه بخليفة أو أمير ، وقد قدم عبد الملك يوما الى المدينة ووقف على باب المسجد ، وارسل الى سعيد رجلا يدعوه ، فاتاه الرسول ، وقال : أمير المؤمنين بالباب يريد أن يكلمك !! فقال : مالى اليه من حاجة ، ومابه حاجة الى ، فرجع الرسول فأخبره فقال له : قل له : أجب أمير المؤمنين ، فكرر سعيد ما قال ، فاستعظم الرسول ما صنع ، فقال له سعيد : اذهب يابنى فان كان يريد بى خيرا فهو لك ، أو شرا فليقض ماهو قاض !! ورجع الرسول بالاجابة الى سيده فطوى الضلوع على غيظ كظيم ٠

وقال عمرو بن عاصم : لمـا استخلف الوليد بن عبد الملك قدم لمدينة ، فدخل المسجد ، ورأى شيخا قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : سعيد بن المسيب ، فلما جلس ، ارسل اليه ، فاتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال سعيد : لعله أرسلك الى غيرى ، فاتاه الرسول فأخبره ، فغضب الوليد غضبا شديدا ، وهم به فقال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين ، فقيه المدينـة ، وشيخ قريش ، لم يطق أباك من قبلك وأغض عنه ، ثم مازالوا به حتى تراجع !

وقد صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة ، لم يتم ركوعها وسجودها كما يجب ، فأخذ سعيد كفا من الحصى ورماه به ، فاستخذى فى صلاته ، وأخذ يطمئن ، ولم يسكت طاغية العرب عن سعيد خشية واجلالا ، ولكنه خاف غضب بنى مروان اذ هم به ، فهم بعد موقفهم الأول منه يتحاشون أن يشعلوا الصدور بمؤاخذته فينكئون جراحا قد اندملت على صديد ، فهى تلتمس السبيل للثورة والانفجار !!

وأيا كان فقد حاول هؤلاء أن يسترضوه ، فما رجعوا بطائل منه ، وقد كان له فى بيت المال عطاء كبير يتجـاوز ثلاثين ألفا ، فبعث اليه ، فرفض ان يأخذ منه درهما ، وقال : لاحاجة لى فيما عند الظلمة من حقوق فقيل له : ألا تخاف على نفسك ؟ فقال لمحدثه : مهلا يا أحمق فلن يضيعنى الله !!

هذا الايمان القوى ، وهذا الاعتزاز بالحق ، وهـذا الورع الرفيع الأخاذ ٠٠ كل اولئك قد أضفى على الرجل حلة زاهية من الهيبة والكمال ، فكان فى حياته قوة مرهوبة عنيدة ، وبعد مماته فكرة سامية نبيلة ، ومثلا تشرئب اليه النفوس الطامحة بل حلما نادرا تتمناه القلوب ، وتترقبه الاجيال ٠

سعيد بن جبير يثور على الحجاج..

بلغت قوة الحجاج بالعراق مبلغا أثار النفوس وأشعل الصدور . فقد كانت الدماء المراقة ، والاشلاء المتطايرة ، والسجون المكتظة مثارا للحنق والتبرم والضيق ، ولم يرع الحجاج فى قسوته دينا أو مروءة . فكان يعنف ويبالغ فى التعنيف حتى لا يترك فى النفوس موضعا لسكينه واطمئنان ، وأصبح الناس مابين خائف على نفسه يستكين ويذل ، ومجاهر بالثورة يستقبل الموت راضيا مسرورا ، متخلصا من حياة الذلة والهوان . وقد انحى كثير من المؤرخين باللائمة على الرجل ، فكتبوا تاريخه بمداد الغيظ والتبرم ، وتربصوا به أسوأ العواقب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ولم نجد غير قلائل يقفون معه فيتكلفون التبرير الفاشل . ويختلقون السبب الواهن، وقصارى جهدهم أن يزعموا أنه اضطر الى عسفه الزائد اضطرارا ليحمى الدولة العربية من السقوط !! وليقيم ملكا فخما تتجمع وراءه الكلمة ، وترتفع به الوحدة العربية فى دنيا السياسه المتألبة ، وقد نسى هؤلاء أن الظلم طريق فاشل لا يؤدى الى ثبات واستقرار ، وقد بالغ صاحبنا فى عسفه وارهاقه فلم يبلغ شيئا من مأمله كما يدعون !! فامتلأت حياته بالثورات الجائحة ، والفتن الدامية ، وما كاد يفارق الحياة حتى التاث الأمر ببنى مروان ، وقامت الفتن الحمراء فى كل مكان ! فأين الوحدة العربية التى دعم الحجاج أركانها وأقام بناءها فى منطق هؤلاء؟! وكيف نغمض عما أورثه الطاغية فى النفوس من ذل مريض، واستكانة كافرة ، فترى العيون الباطل السافر وتغمض عنه متلاهية وتسمع الآذان الافك الصراح وتتظاهر بتصديقه !! وتسير الأقدام فى مواكب النفاق مدعية أنها تسعى فى ركاب العدالة والانصاف !! كل أولئك كان وبالا على الأمة العربية ، ونكبة ماحقة بالدولة الأموية ، فلم تلبث قليلا حتى انجاب ظلامها الحالك ، وأذن الله للباطل أن ينحدر الى هوته تاركا وراءه عبئا ثقيلا مرهقا من المغارم الباهظة والاثقال الفوادح !!

وكان لقسوة الحجاج بواعث نفسية ترجع الى شعوره بضعة أصله ، وتعالى بعض الناس عليه ممن ينتمون الى قبائل جهيرة ويفوقهم الرجل — فى رأيه — ذكاء وتجربة وحزما ، هذا الى طموحه الخارق الى أسباب السيادة والسيطرة ، طموحا جعله رجل الدولة الصارم ، وسيف بنى مروان البتار، ومع ما عرف عنه من التكبر والاستعلاء على الرعية ، فقد كان يتذلل

وينخضع للخليفة وآل بيته تذللا مشينا لا يجدر بقـــائد كبير تناط به الجلائل ، وينهض لمواجهة الأمور ، ولكن رغبته الحارة فى السيطرة أجبرته على تملق الرؤساء ، وكانت دافعه الاصيل الى هذه الدماء المراقة ، دون أن يرعى وجه الله فى روح تزهق ،وراس يطيح ! وهذا التزلف الشائن خلفاء بنى مروان ، والتضعضع المتكسر لأمراء الدولة وغلمانها ونسائها من ذوى الصلة الواشجة بالخلافة ، سبة شـــائنة فى ســـيرة رجل يدعى كمال البطولة ، وأصالة السيطرة ، فالبطل الصارم يأبى على ظهره الانحنـــاء والتكسر ، والفتى المســـلم الأصيل يستنكف أن يتمسح باذيال رجل يفوقه مكانة ونفوذا ، ولا سيما اذا اشتهر عنه أنه الفارس الذى يحمى البيضة ويذود عن العرين !! ولكن الحجاج بذلك التضعضع المشين يدلنا على مفتاح شخصيته التى تتلمس السيطرة الدائبة بتملق الأقوياء وقهر الضعفاء !! دون نظر الى مروءة تابى الضـــيم ، او عطف يمنع البطش والارهاب !!

وطبيعى أن يحدث عدوان الحجاج موجة استياء تعمر القلوب ، وكان الفقهاء من أجلة التابعين ، والعلماء من ثقات الأمة فى طليعة المتذمرين من هذا البغى الصريح ، فهم يرون النفوس ترد حتفها النوبىء فى غير حق ، وقد استشرى الطغيان استشراء لا يقف وراء حد ، وكلما سار أحدهم فى الطريق سمع آهات الثاكلة ، ورأى مدمع الباكية وزفرة المتحسرة ، مما يدفع الحليم الأبى الى الغضب والكراهية فالثورة والاستفزاز ، وما كاد عبد الرحمن بن الأشعث يحمل الثورة على الحجاج حتى ســـارع هؤلاء الفقهاء الأماثل الى تأييده وتعضيده !! وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد ابن جبير !!

نشأ سعيد نشأة دينية ممتازة فصحب ابن عباس وورث علمه ، وبرع فى الفقه براعة أجلسته مجلس الصدارة بين زملائه ومناظريه ، وتصدر للفتوى الشرعية ، فسار الركبان بآرائه ، ونهل الرواد من علمه ، وأوجد بالكوفة حركة فقهية ممتازة ، كانت دعامة قوية لما نشأ بعد ذلك فى الفقه الاسلامى من مذاهب مختلفة .

ولا يمكن لمن يلاحظ تطور التشريع فى أدواره المختلفة أن يغفل دور التابعين فى توجيهه وانمائه أو يجحد مكان سعيد فى انعـــاش الحركة العلمية لعصره ، واعتماده فى ذلك على عقل بصير واطلاع شامل ، فقـــد بدأت لعهده تظهر الفروق الأولى بين مذاهب الرأى والحديث ، وتتجمع الأحكام المختلفة ، والآراء التى مهدت لظهور أبى حنيفة ومالك !!

ثم أعقبت هذه الذخيرة الحافلة التى يعتز بها تراثنا الفقهى ، ولو تأخر الزمن بسعيد الى عهد التدوين والتأليف لقرأنا من كتبه ما يعين على

تحديد موضعه بين افذاذ الفقه الاسلامي ، على اننا نلاحظ من آرائه المتعرفة في شعاب الكتب ما ينبيء عن فضل سابغ ، ومجد تليد ، وقد اعترف أئمة العلم والورع ببراعته في فقهه وتقواه ، فقال الامام احمد بن حنبل : لقد قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى علمه • وقال حصيف : أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وبالحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاووس ، وبالتفسير مجاهد ، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير• وقال الحسن البصري : اللهم انت على فاسق ثقيف ، فوالله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في دم سعيد بن جبير لكبهم الله على وجوههم في النار !! وعالم فقيه له هذه المنزلة في فقهه وتقواه لابد ان يحتل مكانه اللائق في النفوس ، وقد كان الى ذلك كله شجاع اللسان جريء القلب يقول الحق السافر دون أن تأخذه في الله لومة لائم ، وجراءة القلب لم تزل دافعة الى التحرش بالباطل ومهاجمة العدوان ، ولاسيما ان استندت الى رصيد ذهبي من التبصر والذكاء !!

رأى ابن جبير مظالم الحجاج وقسوته ، فلم يشأ أن يعتزل الناس في مسجده ، بل عمل على تخفيف الحدة الطاغية بالنصيحة والموعظة . وشارك في بعض الوظائف مشاركة فعالة ، يدرأ بها ما قد يحيق من كيد وعدوان ، فكان نصيرا للضعفاء يبذل جهده الجاهد في تخفيف الويلات ودرء المصاعب ، كما يفرق ما يتجمع لديه من أموال ، على مسهم العوز والاحتياج • وقد أخذ عليه بعض الكتاب (١) اسهامه في القضاء والمشورة ، اذ كان الأولى به في رأيه أن يترك الحياة جانبا ، ويتفرغ لفقهه في امارة ظالمة يحكمها طاغية غشوم ، ولسنا مع من يقول ذلك ، فكفاح المناضل المخلص يجلب منافع صائبة ، ويدفع نوائب كارثة ، واذا تعاون المصلحون — في أوقات الطغيان — على الخير واسهموا في الكفاح فانهم لابد واصلون الى بعض ما يبتغون من السداد ، ولئن لم يمكنهم اخماد النار المشتعلة ، فهم على الأقل يحضرونها في نطاق أضيق •

واذا كان الحسن البصري — معاصر سعيد وقريعه في الفقه والتقوى — قد اعتزل وظائف الدولة ، وشاء لنفسه أن يقتصر على النصيحةوالتوجيه في رفق وحيطة ، فليس لنا أن نجبر سعيدا على ارتسام منهجه . فالانطوائيون في كل عصر لا يساهمون في توجيه النظم ودرء المفاسد كما يقوم بذلك المكافحون المناضلون !! وعجيب جدا أن نرى بعض الذين كتبوا عن سعيد وصاحبه يحبذون اعتزال الحسن ويعدونه مثلا أمثل في التقية والاحتياط ، وينظرون الى اشتراك سعيد في وظائف الدولة كخطأ تتلمس له المعاذير !! وكأن صاحب هذا الرأي لا يعلم أن الاسلام دين

---

(١) اقرأ ذلك في كتاب القضايا الكبرى في الاسلام .

كفاح وعمل ، وليست قيمة الورع أن تعتزل المناصب وتترك ميـــدان العمل ، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا فى يدك ، تعرفها بميزان العدالة المنصفة ، فتدفع شرا يطرأ ، وتجلب خيرا يتاح ٠

ولم يتخلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد فقد خف الى مقاتلة « روتبيل » ملك الترك حين تحرش بالمسلمين ، وهاجم سجستان فداك الحصون ، وازهق الأرواح ، ووقع الغر بفى رعب شديد ، وفزع هائل ، وقد سار الجيش الاسلامى بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث لتأديب الطغاة ، ومعه العدة الواقية من السلاح والرجال والخيول !! وكان الموقف دقيقا يتطلب البطولة الحازمة والرأى الحصيف ، فالمسلمون مقبلون على اصقاع نائية ، ذات هضاب وأشواك ، وعدوهم مستقر ببلاده يعرف الدروب والمسالك ، ويتمتع قائده بحيل ماكرة تذلل العسير ، وتقوم مقام القوة والعتاد ، فلا بد اذن من العزيمة الصادقة ، والجلاد الصابر المرير ، وقد خطب عبد الرحمن جنوده وصـــور الموقف الدقيق داعيـــا الى الحمية والاستبسال ، ثم أخذ يتقدم فيحتل مواطن أعدائه بلدا بلدا ، ولا يندفع فى طريق دون أن يختبر دروبه ، ويلم بما أمامه من مرتفعات وشعاب ، وقد كتب الله له النصر فاحتل حصونا كثيرة ، ووضع المخافر المسلحة فى كل مكان مخوف ، وأقام البريد بين الأماكن المحتلة ، لتأتيه الأنباء فى أقرب مدى يمكن ، وقد فكر فى أمره طويلا فرأى من الحيطة أن يكتفى الى أمد قريب بما أحرز من نجاح ، فلا يدفع بكتائبه المجهودة فى مطارح نائية دون أن تأخذ نصيبها من الراحة والاستجمام ، فتنقطع بها الاسباب وينقلب النصر هزيمة نكراء ، ثم كتب الى الحجاج ينبئه بما أصاب من غنم ، وما عزم عليه من هدنة مؤقتة يتم بعدها الاستيلاء التدريجى عـلى البلاد ، وكان على الحجاج أن يقدر له موقفه فيشجعه بعبارات تفعل فعلها الحميد فى نفسية القائد المناضل وجنوده المغاوير ، ولكنه عارض الهدنة معارضة شديدة ، وأرسل الى عبد الرحمن خطابا مليئا بالزراية والاستهجان ثم أعلن عزله وتوعده مهددا منددا ، وتلك حماقة رعناء يرتكبها الحجـاج دون روية وانتباه ، اذ كان يمكنه أن يصوغ أسلوبه صياغة هادئة تتجافى عن الاستهجان والوعيد ، ثم يعلن رغبته فى استئناف القتـــال مشجعا قائده ، مثنيا على جهوده ٠ واذ ذاك لا تنفجر النفوس بالغيظ فتجنح الى التمرد والعصيان ، وقد كان الأشعث بمكانه من الكفاح وخبرته بالمواقع والدروب ، أبصر من الحجاج بما يجب أن يتبع مع الأعداء ، فقد درس البلاد وتمرس بخطوبها الفادحة ، ولن يستوى الغائب والشاهد بحال !! كان على الحجاج أن يفعل ذلك ، والا فأية نتيجة يتوقعها غير الثورة الهائجة من أناس جاهدوا أعنف جهاد ، ثم قوبلوا من القيادة بالاستخفاف والتحقير والابعاد !!

على أننا نجزم جزما تؤيده شواهد التاريخ ، وتوحى به دلائل السياسة ، أن الحجاج كان فى ثورته الرعناء على ابن الأشعث ، يقدر اعتبارات شخصية لا تتعلق بمصلحة الحرب ، فهو يرى فى عبد الرحمن منافسا خطيرا يقوم الناس له ويقعدون ، ولئن وقعت الهدنة كما يريد فسوف يتفرغ الى جمع القلوب نحوه والتفاف الناس حول رايته ، ومن ثم تعظم مكانته ، ويحتل فى بلاط الخلافة منزل المنافس العنيد ، لذلك بادر الحجاج بعزله وتهديده ، وكان فى النصح باستئناف الحرب مندوحة عن الوعيد والقهر لو خلصت النيات من دخلها المريب ، وكأنى بعبد الرحمن وقد لاحظ ذلك وتيقنه ، فحمل لواء الثورة الناقمة ، وتكتكت معه عصائبه الكثيرة وكتائبه الشداد !!

لقد ثار عبد الرحمن على الحجاج ! وثار معه أتباعه وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير !! ولم يكن تهديد الحجاج وحده باعث هذه الثورة فى رأى من انضم الى غريمه العتيد ، بل ان تاريخ الحجاج المفعم بمآسيه النكراء قد ترك فى كل نفس هزة أليمة ، فلم تكد تتلمس القائد المغامر حتى هبت تجالد العدوان ، وتحتم بالانتقام حلمـــا يدفعها الى التضحية والاستبسال ، وكان سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن ابيلى وعامر الشعبى ، وغيرهم من أعلام الفقه وأئمة العلم فى مقدمة الثائرين ، وقد لاقت الثورة تأييدا اجماعيا من العراق وكاد يتم لها النصر الساحق فى مواقع متتالية أخذت تتلاحق وتتتابع ، الا ان عزيمة الحجاج الصخرية قد استطاعت أن تتغلب على الصعاب وقد وردت اليه جحافل الشـــام واستعان الطاغية بمكائده الكثيرة ، فانبرى ابن الأشعث وفر هاربا تتقاذفه السبل والمشارف ، وتفرق جيشه أباديد ، فقبض الحجاج على ناصية الأمر ، وعقد المحاكمات الدامية للثائرين ، فازهق مئات الارواح ، وختم حياته الســـياسية بهـــذه المحاكمات ختاما سيئا يذكره التـــاريخ بالفزع والاستنكار !!

تصدر الحجاج مجلس المحاكمة ، وأخذ يرسل ضحاياه الى الجلاد شهيدا وراء شهيد لا يعبأ بعذر واضح أو يستشعر خشية مرهوبة ، وكانت محاكمة سعيد بن جبير ، حدثا رائعا يسجل آيات البطولة من مســـلم بشق بعدل الله ورحمته ، ويرى من المحتم المؤكد عليه ، أن يجابه الطغيان فى جبروته ، ولا عليه اذا كانت نتيجة ذلك قاســـية أليمة فهو يعلم أن حياة الذل والخنوع لا تقاس بالشهادة العالية فى مناضلة الفســـاد ، والتشهير بذويه ، وقد كان فى وسعه أن يتفادى مصرعه بكلمات معسولة تظهر تدرعه واستكانته ، ولكنه وجد الحرج الزائد فى ضميره ، واستشعر الرغبة المخلصة فى الشهادة ، فأعلنها ثورة سافرة على الظلم البغيض ، وواجه الأسئلة القاسية باجابة تعدلها قســـوة وصلابة ، فأذل كبرياء

الحجاج وحطم غروره الكاذب فى موقف يترقب فيه المديح والاطراء ، بل ان سعيدا قد أبى أن يهرب فى طريقه الى المحاكمة ، وقد مهد له الحارس سبيل الفرار ، أبى ذلك ورفضه كى لا يؤخذ بجرمه حارس ضعيف • !! وكيلا تسجل الاجيال عليه نكوصا عن مواجهة الطغيان فى موقف تقشعر به الجلود ، وترتعد الفرائص الشداد !! واليك بعض مادارت به المحاكمة الرهيبة بين الطاغية الظالم ، وغريمه الأبى الصبور !!

لقد انتفخ الحجاج فى جلسته ، وسأل فى استخفاف :

ما اسمك ؟ فسمع سعيدا يجيب فى صلابة وعزة :

« اسمى سعيد بن جبير !! ولكن الطاغية يتهكم فيقول مبالغا فى استخفافه : بل شقى بن كسير !! فيندفع سعيد ليجيبه بقوله : أبى كان أعلم باسمى منك !! واذ ذاك يتضايق الحجاج فيصيح فى تبرم وغيظ : لقد شقيت وشقى أبوك ، ويظن أنه بذلك قد قطع الرد على غريمه ! ولكنه يسمعه يجيب : الغيب انما يعلمه غيرك ، فيستشرى غيظه ويلجأ الى الوعيد والتهديد فيصيح : لأبدلنك نارا تتلظى ! وهنا يرده سعيد الى حقيقته فيقول له فى بساطة هادئة : لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت الها غيرك !!

لقد طالت الأسئلة ، ولم يصل الرجل الى افحام غريمه كما يريد ، فليسلك مسلكا آخر يقرب الفريسة من فخها المرصود !! وكان الكلام عن بعض الصحابة ـ آنذاك ـ مثارا للكيد ، والاتهام بمناوأة الدولة ، والثورة على سياستها العامة ، ولا سيما تطرق الحديث الى الامام على كرم الله وجهه ، وقد فطن الحجاج الى ذلك ، فأدار الدفة الى أهل البيت ، وسأل سعيدا : ما قولك فى محمد ؟! وهو سؤال لا يتطلب روية من عالم بصير كسعيد ، فصاح يقول : نبى الرحمة وامام الهدى ، بعثه الله رحمة للعالمين ••

وهنا نفذ الطاغية الى هدفه فقال : وما رأيك فى على ؟ أهو فى الجنة أم فى النار ؟ واستمع الرد فوجد حزما بالغا وحيطة تامة فى قول سعيد : « لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها » فقد أقفل بسداده الحازم باب اللجاجة فى وجه أعرى حاقد ، يتربص الدوائر بشيعة على وعشاقه ، !! فتميز الحجاج حنقا وصاح : ما قولك فى الخلفاء ؟ ولكن الرد يأتيه فى قول سعيد : لست عليهم بوكيل !!

وسار النقاش فى طريقه الدقيق من باب الى باب دون أن يزل ابن جبير باتهام يدع حيثية الاعدام فى يد عدوه ، فاصطرعت فى نفسه

أعنف ضروب الانفعالات المتناقضة فكان رأســـه يغلى بأفكاره كما يغلى القدر الفائر ، ثم هدأ قليلا ، وقال فى سخرية مريرة :

« أتريد أن أعفو عنك ؟ ! فاذا سعيد يقول فى ثقة وايمان : « ان كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا تملك عفوا عن انســـان ! ولو كان الحجاج ممن يخشعون لهيبة الله لقنع بما سمع ، ولقدر للرجل ايمانه الراسخ ، ويقينه العميق !! ولكن حمى الانتقام الرعناء ترتعش فى كيانه ،

ثم تصدع رأسه فيصيح : اختر أى قتلة تريد أن أقتلك بها ؟ فيجيبه سعيد فى هدوء الصابر وايمان المحتسب : بل اختر يا عدو الله لنفسك ، فوالله ما تقتلنى اليوم قتلة الا قتلتك فى الآخرة بمثلها !!

ثم تكون الخاتمة الأليمة فيساق الشهيد الى المذبحة الحمراء ، وكانت آخر دعوة ترددت بها أنفاسه الطاهرة : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى !! وكان السماء قد سمعت دعاء المظلوم الشهيد ، فمات الحجـاج بعد مصرع غريمه بخمس عشرة ليلة دون أن يريق دما لانسان ، وحسم الموت شره عن الناس !!

لقد استشهد سعيد فى حومة المجد والكرامة !! ولكن زميله فى الثورة الفقيه العالم « عامر الشعبى » قد نجا من الموت ، اذ أظهر الخنوع والاستكانة وطأطأ رأسه للطغيان ، منتحلا شتى المعاذير ، وتقدم الى الحجاج يقول فى توبة النادم ،وأسف المذنب : « أصلح الله الأمير ، لقد حبطتنا فتنة ، فما كنا فيها بأبرار أتقياء ، ولا فجار أقوياء ، وقد كتبت الى يزيد بن أبى مسلم أعلمه ندامتى على ما فرط منى ، ومعرفتى بالحق الذى خرجت منه ، وسألته أن يخبرك بذلك ويأخذ أمانا منك !! »

ونحن حين نوازن بين الموقفين نجد عامرا قد اعترف بنكوصه عن الحق فى ثورته على الحجاج !! ومعنى ذلك أن الطاغية فى بطشه الماحق وقهره العنيف لا يستأهل ثورة قوية تزعزع باطله الجرىء !! فلو وقف سعيد موقف الشعبى لكان حدثا رائعا وخطبا جللا أن يعترف فقيهان كبيران ، بعدل الحجاج فى بغيه ، وانصافه فى جبروته !! وذلك مالا يرضى عنه أخو ورع يسمع ويرى ما يزهق من الأرواح ، وما يتطاير من الاشلاء كل حين ، لذلك آثر سعيد الآخرة ، وتقدم الى المحاكمة يحمل روحه على كفه ، ليعلم الناس جميعا ، أن الحرية تنال بالدماء ، وأن الشهادة فى سبيل الحق مثوبة رفيعة لايدركها غير المثاليين من ذوى النفوس الرفيعة والمعدن الأصيل !!

على أن الحجاج الذى أزهق فى حياته ما يزيد على المائة والعشرين ألفا من الأرواح (هـكذا قال التاريخ) ، قد استهول مصرع سعيد وحده ،

فالتاث عقله ، وشرد رأيه منذ شاهد رأس الشهيد يتطاير عن جسمه فلم يذق النوم الا غرارا ، وكان يستيقظ فزعا وهو يصيح : يا قوم ، مالى ولسعيد بن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى !!! وكان يتخيل كأن هاتفا يصلصل فى اذنه : أى عدو الله .. فيم قتلت سعيدا !! ومات الطاغية وهو يذكر فى احتضاره سعيدا ، كما مات معاوية من قبله وهو يذكر فى سكراته حجر بن عدى !! وكلاهما يذكرنا فى انفعـــاله المؤرق بقول القائل :

اثنان لا يتهـــادنان دقيقة شبح الضحيةوالضمير المذنب

يحيى بن يعمر بطل صريح

لو ازدهر التأليف في القرن الأول من الهجرة كما ازدهر فيما تلاه من العصور لغنمت الثقافة الاسلامية خيرا كثيرا منه ، اذ أن هذا القرن الجليل قد حفل بعلماء أماثل من أجلة الصحابة ، وأهلة التابعين . واذا كنا نرى اليوم آراءهم العلمية متفرقة في مطاوى الكتب فنقف على الكثير من اجتهادهم الحافل ، واستنباطهم الدقيق ، فماذا كنا نغنم من المعرفة لو عكف هؤلاء الاعلام على تدوين آرائهم في كتب خاصة بهم كما فعل الخلف ممن تلاهم على مر العصور . وان سماء ساطعة يتألق في أفقها المنير كواكب وضاءة من أمثال علي وابن عباس وابن عمر وزيد ومعاذ وابن مسعود من مشيخة الصحابة ومن طراز الزهري وابن المسيب وعطاء الشعبي وربيعة وابن جبير وحماد والحسن من أعيان التابعين ان سماء تسطع بهذه الكواكب لجديرة أن تبعث الضوء في ظلمات الأحقاب ودياجي العصور فتهدي الى الطريق القويم .

ولقد كان يحيى بن يعمر العدواني احد هؤلاء المتضلعين في علوم الشريعة والعربية من أفاضل التابعين . وقد شارك مشاركة مثمرة في غرس بذور النحو مع أبي الأسود ثم انه كان كاتبا لا يتلقى العلم مشافهة فحسب بل يدون ويسجل ، وقد عثر على بعض الصحف الأثرية ممهورة باسمه كما أنه المخترع الأول لنقط الحروف بعد أن خاف اللبس من الاهمال فابتكر الاعجام ، هذا الى تضلع واسع في اللغة ، اذ كان لا يسأل عن كلمة ينطق بها بدوي مصحر الا شرحها واستشهد عليها من محفوظه وقد دعاه هذا التتبع الواسع لمهجور الكلام في بطون القبائل ، وأفخاذ البداة أن ينطق في بعض حديثه بالغريب ، حتى اشتط بعض الكاتبين فعده من المتقعرين ، وما أظن هذا صحيحا ، لأن المتقعر هو الذي يجمع الحوشي من هنا وهناك ليتشدق به عن عمد ، على سبيل المباهاة ! .

أما العالم اللغوي المتمكن فلابد أن يسيل على لسانه ما لا يقصده من الغريب ، كما نرى اليوم بعض الاصطلاحات العلمية في كتابات العلماء ، وخواطرهم الأدبية ، دون أن يقصدوا الى تعالم شخصي ، انما يتحكم فيهم تخصصهم الضليع تحكما لا يقوون على الانفلات منه !! هكذا كان يحيى فيما ينطق به من الغريب ، حتى اشتهر عنه وتنوقلت منه طرائف وأفاكيه . روى أن يزيد بن المهلب كتب الى الحجاج : لقد لقينا العدو

ففعلنا وفعلنا حتى اضطررنا ، الى عرعرة الجبل ، فقـــال الحجاج ما لابن المهلب وهذا الكلام ! فقيل له : ان يحيى بن يعمر لديه : فابتسم قائلا : هو ذاك .

هذا بعض ما يشير الى مكانته فى علوم العربية ، اما آراؤه العلمية فى الفقه والتفسير والحديث فاكثر من أن يلم بها ملم فى نطاق وجيز ، ولسنا هنا بصدد ايضاح مركزه العلمى ، ولكننا نمهد لايضاح عظمته النفسية وعزته الخلقية فقد كان من الشجاعة الأدبية فى الحق ، والجرأة الخلقية فى مواجهة الطغيان بالمكان السامق ، والمنزل المرموق ، وقد شاء له القدر أن يبتلى بالحجاج أو يبتلى الحجاج به ، فواجه وكابر وأدى دوره مرفوع الرأس عالى الجبين .

كان الحجاج ، طاغية العراق ، يدين بفلسفة القوة والارهاب ، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل اذ ان ظروف حياته وحوادث عصره ، وفتن بيئته ، قد جعلته لا يعبأ بمهادنة واستمالة ، وانما يرى الطغيان سبيل الهدوء والاستقرار ، وقد اختاره عبد الملك ليقمع ويردع لا ليؤلف ويقرب ووجد بعد التجربة أن اقمع يدنى من مأربه ، ويرفع من مكانته لدى الخلافة، فتمادى فيه تماديا جائرا، ووطن عزمه على أن يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظا ، وانه ليجلس على العراق عالما ان حاشيته ــ قبل رعيته ــ يضيقون به ويسعون للتخلص من شره ، ثم هو لا يعبأ بما يعلم ما دام السيف فى يده والسجن من ورائه . فليغضب الغاضبون كما يشاءون فالقوة الطاغية تقيه كل سوء ، وقد تغلغل اعتقاده هذا فى نفسه حتى سرى الى أسرته الخاصة فكان يجبر المرأة على الاقتران به ثم يعاملها معاملة من لا يستميل ودها أو يحرص على حنانها ، بل معاملة المتسلط المتحكم ، ولها أن تضيق فيما بينها وبين نفسها بزوجها ومنزلها وحياتها فليس بمنجيها منه تبرم أو ضيق ، واذا كان هذا سلوكه مع احب الناس اليه فما ظنك بالجنيب البعيد ؟ هذا المتحـــكم القـــاهر قد ابتلى بيحيى بن يعمر فيمن ابتلى بهم من العلماء فما وهنوا لمـــا أصابهم ، بل ناوشـــوه وقارعوه ، وانتصروا عليه بالمنطق المفحم فى يوم مجموع له الناس !

لقد رأى الحجاج ان الكوفة تهيم حبا بالحسين بن على ، وتجعل من ذكراه المؤسية منحدرا للدمع ومصعدا للزفير ، وقد كافح وجاهد فى تبديد هذا الحب الوثيق فما استطاع ، وكان يعلم ان قرابة السبط الشهيد من رسول الله تجمع عليه القلوب وتضعه بين الجوانح والشغاف ففكر وقدر ، ثم رأى أن يعلن أن الحسين هو ابن على بن أبى طالب ابن عبد المطلب وليس من ذرية محمد بن عبد الله لأن انتسابه لفاطمة

لا يغير من الأمر شيئا فالأب هو المعتبر فى النسب دون الأم على قول من قال :

بنو أبنـــائنا وبنـــاتنا بنوهن أبناء الرجال الاباعد

وقد خطب فى ذلك وأطال . واخذ يتتبع مخالفيه سجنا وتشريدا ، ويرسل عيونه فى الكوفه ليأتوه بمعارض يصدر عن غير رايه . فيجعل من عقابه مثلا رادعا لغيره ، وسرعان ماجاءه الخبر ان يحيى بن يعمر سئل عن الحسين وانتمائه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأجاب فى المسجد الجامع أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! وان الحجاج يحكم ولا يفتى ، فاذا أفتى فعن غير علم واعتقاد ! !

لم يدهش الطاغية لمـا بلغه . فهو يعرف فى يحيى جراة وشجاعة ، وكثيرا ما اصطدم معه فى جدل مذهبى فكان صاحب الحجة الفاصلة والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة او يلين من ثباته ايعاد ، ثم هو بعد يتشيع فى اعتدال فلا يوازن بين الصحابة لينصر فريقا على فريق ، ولكن ليضع الحق فى نصابه مستعصما بالعروة الوثقى من الايمان ، على انه من وراء ذلك مسموع الكلمة ، محترم الراى ، فاذا افتى بما يعارض الحجاج فقد تمكن من قلوب الناس وذهبت دعوى الطاغية فى الحسين أباديد ، ماذا عسى أن يصنع به وقد اصطدم منه بداهية دهياء ، لابد أن يتمكن من اسكاته عن طريق الادعاء والتعنت فيلزمه بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه !

وليس فى القرآن فى منطق الحجاج ما يثبت ذلك ، فاذا أعلن يحيى عجزه عن الاستشهاد بالقرآن فقد قامت عليه الحجة فى راى الجمهرة من العامة وللطاغية بعـد ذلك أن يتطاول عليه مســـتكثرا بالسلطان والجبروت حتى يخذله خذلانا لانجح بعده ــ هكذا قدر الحجاج وأراد، ثم تعجل فعقد مجلسا حاشدا من أعوانه ووجهاء الكوفة ، ودعا معهم شيعة يحيى ومقدرى علمه وفضـــله ، لينكشف امامهم فى المعمعة ، فيضيع ما ينسب اليه من علم وثبات ، ثم أرسل من يحضر يحيى ليتجرع كأس الهزيمة فى انكسار وحانت الساعة المرتقبة . فحضر الرجل ليرى حفـلا غاصا بالجموع ، وقد تصدره الحجاج كالح الوجه مقطب الجبين ، وقد امتدت العيون، واشرابت الاعناق لترى العالم الوقور يتقدم فى اطمئنان فيلقى تحية الاسلام ثم يهم بالقعود فيصيح به الحجاج :

« لا تقعد يا يحيى وأوضح لنا رايك فى صلة الحسين برســـول الله ! »

فيرد يحيى فى كبرياء : الحسين والحسن من ذرية رسول الله

وان غضب الحجـــاج ! ! فيتنمر الحجـــاج متحفزا ويصيح : ألديك دليل من كتاب الله ، فيرد يحيى فى ثقة بالغة : معى الدليل من القرآن !! فيضرب الحجاج كفا بكف ويقول متهكما : ما شاء الله ، أفى القرآن أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! لقد قرأته مئات المرات فمـا وجدت ما تقول يا رجل !

فيتطلع يحيى الى الحاضرين ثم يصيح بصوت مجلجل ، وايمـــان وثاب :

قال الله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجـزى المحســنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين »

ثم تلفت الى الجمهور قائلا : أيكون عيسى بن مريم من ذرية ابراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ، وبينهما من القرابة الدانية أكثر مما بين عيسى وابراهيم أيها الناس !

لقد جاء الدليل صاعقا قاصما ، وقد اعتصـــم الحجاج بذكائه ليسعفه برد مضلل فما استطاع ، وبدت الفرحة والشمـاتة فى عيون الجالسين ، فزادت من ضيق الحجاج وانبهاره ثم رأى ان يتراجع فى موقف ضائق يضغط عليه بآصاره فابتسم فى تصنع ، وقال :

« اجلس يا يحيى . فقد فاتنى هذا الاستنباط ! »

ولم يشأ أن يصرف القوم لوجوههم بعد ما لحقه من خزى فاشل، فرأى أن ينهض فيعترف بأن القرآن بحر لا ساحل له ، وان العربيـة الفصحى لا تسلس قيادها لغير من يحفظ القرآن ، وانه هو وحده الذى أمر يحيى بن يعمر أن يضع النقط على حروف المصحف ، لتسهل سبيل الحفظ الدقيق . والاستظهار الصحيح ، ورأى أن يجامل يحيى فاتجه اليه سائلا :

ــ اتجدنى الحن فى قولى يا ابن يعمر !

فابتسم يحيى ابتسامة المتهكم وقال فى لهجة ذات مغزى خاص ، الأمير أفصح من ذلك ــ فاغتاظ الحجاج وصاح قائلا : « عزمت عليك : اتجدنى الحن .

فقال يحيى بملء فمه : نعم أيها الأمير !

فنظر منبهرا وقال : ألحن فى اى شىء أفصاح يحيى : فى كتاب الله !

فنهض الطاغية مغتاظا وهو يقول : ذلك اسوأ لو كان . ففى اى حرف لحنت ؟

فرد يحيى فى تحـــد : لقد قرات بالمسجد الجامع « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخواتكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها . وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم » ، فضممت الباء وهى مفتوحة !

فتغير وجه الرجل ، وحدثته نفسه أن يهم بصاحبه ، ولكن انهياره النفسى أورثه ترددا لا عهد له به ، ثم انه خشى أن يصيبه بسوء فيتناقل الناس فى الأمصار قصـة حجاجه فى سبب الحسين ، وينتهى الى قصر الخلافة فى دمشق ما كان من تهوره حين جادل فى أمر لا يقبل الجـدل فمكن لخصوم الخلافة من الانتصـار . واضاف الى حججهم الدامغة حجة شماء . فرأى أن يستكين . وشـاء بعض الحاضرين أن يصرف الحديث الى موضوع آخر ، فأخذ يسأل الحجاج عن مدينة واسط التى شيدها باذلا جهـده اجاهد فى التعمير والتثمير ، وكان الطاغية قد ارتاح الى هذا الانتقال المنقذ ، فأخذ يسهب فى تقدير كفايتـه ، ويبين حسن اختياره للمكان ، وسخاءه فى الانفاق والتشييد ، ويحصى اعداد من قاموا بالبناء من الفعلة والعمال وما استخدم من الماشية والحيوان وما انفق من الدرهم والدينار . ثم راى ان يصـانع يحيى ليظهر امام الناس بأن هزيمته لم تنل من نفسه . وأن الأمر لا يخرج عن مجرد راى يخطىء ويصيب ، فربت على كتفه برفق ثم قال :

— لم تذكر لنا رأيك فى مدينة واسط يا يحيى !

فسكت الرجل ولم يرد !! وتوجهت العيون اليه فزادت من حرج الحجاج وتورطه فأعاد السؤال مغيظا !

فقال يحيى : أيها الأمير ماذا أقول عن واسط ، وقد شيدتها من غير مالك ، وسيسكنها غير أهلك .

فلم يعد فى قوس الصبر لدى الطاغية من منزع ، وتلهب الجمـر فى عينيه ثم صاح فى انفعال : ما حملك على هذا ؟

فقال يحيى فى اعتداد : ما أخذ الله تعالى على العلماء فى علمهم الا يكتموا الناس حديثا ! !

فأطرق الحجاج منخذلا ، وساد صمت حائر غمر المكان لحظات ورأى الطاغية أن يقوم بعمل ينقذ خشيته فصاح بيحيى :

ـ لا تساكنى ببلد انا فيه . فاذهب منفيا الى خراسان ! ثم نهض من مكانه مخذولا ليتفرق الناس ، كل الى مثواه ..

قال الراوى :

ـ وذهب يحيى بن يعمر الى خراسان ، فوجد صيته الطائر يسبقه هناك، ورأى الجميع يتحدثون بمجابهته للحجاج مكبرين مقدرين! ودنا خراسانى فسأله فى تعجب :

ـ الم تخش سيف الحجاج ! ؟ فرد فى ايمان الواثق : لقد ملأتنى خشية الله فلم تدع مكانا لخشية انسان .

عمرو بن عبيد عالم مثالي

كان أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين ، وكان من الهيبة والخشية بمنزلة توحي الرعب ، وتبعث الفزع فيمن يخالطونه ويشاركونه الحكم من أمراء ووزراء وقواد .

ولو نظرنا الى تاريخه نظرة فاحصة لرأيناه ـ وان ملك الدنيا ودانت له الرقاب ـ غير سعيد بأبهته وسلطانه ، فقد رأى الرجل من الأحداث المتناقضة المتضاربة منذ صباه الناشىء الى أن لقى ربه ما أورثه القلق والحيرة واليأس ، فقد كان يظن ابان نشأته الأولى فى حكم الأمويين أن ما تعانيه نفسه من فزع ، وما تلقاه عشيرته من مضض سيزول حتما بزوال الدولة الأموية المستبدة ، ولذلك جاهد وجالد ، وانتقل الى شتى الأقاصى النائية ، ليبشر بيوم جديد ، تشرق فيه الشمس على العالم الاسلامى ساطعة منيرة . ثم تغيرت الدنيا وتحقق الحلم المشتهى ، وأصبح خليفة بأمر فيطاع ! فهل هدأت نفسه قليلا من شجنها الثائر ووجدها المقيم ! انه لينظر فيجد نفسه مضطرا الى أن ينقلب على أصدقاء الامس ممن بنوا مجده ، ورفعوا خلافته . فتسيل دماؤهم على شفرات سيوفه . وتتساقط رقابهم بضربات أنانيته وحذره ! ! ثم انه لا يقتصر فى ذلك على أصدقائه وأعوانه ، ممن لا تربطه بهم أواصر الدم والنسب ، بل ينتقل الى أبناء عمومته فيتخذهم خصوما أشد خطرا ، وأفزع أثرا من الاباعد الغرباء ويعمل فيهم جبروته فيقتال الأرواح ويسفك الدماء ! ! وليت شره اقتصر على بنى العمومة بل انتقل الى بنى العباسى أنفسهم ، فهو يقصى ولى عهده بتدبير ظالم ليمهد السبيل لنجله ثم يتتبع أنصاره وخلصاءه فلا يفلت من يده أحد ، ويظن الظنون فى طوايا وزرائه ونيات قواده فيعصف فى الفد بصديق الأمس ، ويحدث من الارتياب والقلق فى نفوس حاشيته ، ما يجعل الوزير المطاع يترقب يومه فى حذر واشفاق ، بل هو يسبر أغوار خلصائه ومعارفه محللا معللا فيجدهم مثله . طلاب جاه ونفوذ ، وعشاق أموال وقصور ، فليس فيهم من يخلص له النصيحة بنفس صادقة ، وسريرة طاهرة ، وانه ليرى فى وجوههم عيون الثعالب . يديرونها ذات الشمال وذات اليمين ، وهو بعد مضطر الى مصانعتهم ، والتغاضى عن بعض ما يأتون ، ليكونوا أعوان شدته ، ونصراء كريهته ! ! ليت شعرى : ـ أيستقيم له

فى هذا العباب المضطرب هدوء واثق، أو اطمئنان مريح لقد أخذ يستعيد تاريخ حياته ، ويفكر فى بعض من يعـــرفهم من ذوى النفوس الخيرة ، ليكونوا مستشاريه ونصحاءه ، فلم يكد يعثر على أحد ..

ثم لمع فى ذهنه فجأة خيال صديقه القديم العالم العابد الزاهد عمرو بن عبيد فرأى فيه مثلا للصراحة المخلصة والنزاهة الخالصة من المآرب والهوى . والرجولة المترفعة عن الرغبات والميول ، فبعث اليه من يستدعيه مكرما مبجلا ! وانه ليـــأمل أن يجد بعض الراحة معه حين يجلس لحظـــات مع نفس ملائكية لا تفكر فى غير نوازع الحق والخير والجمال ...

ولم يكن عمرو بن عبيد بالخامل الذكر أو المجهول القدر فقد كان عالم البصرة ورأس متكلميها وله جدل يفحم الخصـــم ، ولسان يفلق الصخر ...

وان اختلف أعداؤه معه فى آرائه الاعتزالية . ومسلكه القـدرى ورأيه فى العدل والمعصية فهم متفقون جميعـــا الا من ندر على طهارة نفسه ، ونزاهة ضميره ، ومتانة خلقه ! وان استاذه «الحسن البصرى» ليعبر عن شعور عارفيه ، حين يقول عن تلميذه التقى كلمـة يفوح منهـــا عبير المحبة والتقدير ، وقد خبره فى حلقات الدرس واكتشف سلوكه فى معاملة الاقران والنظراء ، فاندفع يقول عنه فى ثقة واعجاب :

— عمرو ما عمرو ! ! رجل كان الملائكة أدبته وكان الأنبياء ربته . ان قام بأمر قعد به ، وان قعد لأمر قام به ، وان أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان أترك الناس له . ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه .

هذه التزكية المشرفة من امام خطير الراى والمكانة والثقـــافة فى عصره كالحســـن البصرى ... لا تكفى لدفع لجاجة بعض خصومه فى الرأى، فاندفعوا وراء حقودهم الشخصية الى مهاجمته فى دينه وعقيدته ، واذا كان الرجل قد افحم بالحجة والعقل . ورمى تقولهم بالوضـــع والافتراء ، وأول ما يعتمدون عليه من الآيات والأحاديث والنصوص . فقد رموا منه بداهية دهيـــاء ، على أنه قد رزق من ســـلاسة القول وفصاحة العبارة ما ملك أزمة العامة والخاصة ، فليس لخصـــومه معه فى جميع هذه النواحى سبيل الى المجابهة والعناد ، وقد غلت الحقود المريضة ببعضـــهم فاندفعوا يســـبونه سبابا جارحا ، يبرأ منـــه الخلق الأصيل ، حتى لقد جـــاء اليه بعض تلاميذه ذات صـــباح فقال له : يا أبا عثمان انى لأرحمك مما يقول الناس فيك . فقال :

– يابن أخي أسمعتني أقول فيهم شيئا ؟ قال : لا ، قال : فإنهم فارحم !

هذا الرد الوجيز البليغ يكفي على قصره أن يكون مفتاحا لشخصيه قائله ، فانه ليكشف لك النقاب عن مشاعره وأحاسيسه لترى بذاته الداخلية أفقا رحيبا من التسامح والعفة والنقاء ! وهذا بعض ما جذب المنصور اليه فبعث يستدعيه ! !

لقد فكر عمرو بن عبيد في دعوة المنصور اذ بلغته ، وأخذ يسأل نفسه : ماذا يروم مني هذا الرجل . وقد اعتزلت قصره وبلده ، وما فكرت في زيارته منذ ولي امور الناس . مع انه كان من أصدقائي الأقربين أيام شبابه في الحكم الأموي . فكان ينزل الى مسكني فيعرف زوجتي وأولادي وأقربائي ، ويرى بنفسه ما آتي وما أدع من الأمور !! لقد مضت السنون الطويلة دون أن أخطر على باله في مضمار عظمته المرهوبة ، وسلطانه العريض ! يعلم الله أني أفر من هؤلاء المتسلطين فرار الصحيح من الأجرب ، وأعرف أن في التقرب اليهم مشاركةايجابية فيما يقترفون من المآثم ، ان لم يجابهوا بالنصيحة الحاسمة ، والمعارضة الصريحة . كما أمر الاسلام ، ثم ماذا أصنع الآن ؟ أأرفض الدعوة أم أجيبها ؟

هذا ماتردد في نفس عمرو ! غير انه لم يلبث ان قطع كل تردد ، وصمم على زيارة ابي جعفر لا ليلاطفه ويخادعه ، بل ليقول له كلمة الحق فيما يأتي من الاشياء ، وهو بعد كما يعلم المنصور لايخشى في الله لومة لائم ! .. بل يقذف بالحق على الضلال .

فكر أبو عثمان في أثناء طريقه فيما سيواجه به أبا جعفر من أشياء، فهو في ميزانه النزيه قد حاد عن طريق الخلافة الراشدة فيما قام به من تجبر وارهاب ، اذ جعل كل همه أن يثبت قوائم عرشه فتم ذلك على اشلاء الضحايا ، ومع رنات الثكالى والنادبات ، ولم يعتبر بما اصاب الدولة الاموية من انهيار ، حين سلك مسلكها الوبيء ، بل لم يعتبر بما حكاه القرآن عن ارم وعاد وفرعون ذي الاوتاد ممن طغوا في البلاد ، ولا بد أن يواجه بذلك ليرتدع عن غيه ، ولن يهتم عمرو بعاقبة . فحسبه ان أدى أمانة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في دنياه ، ثم ان الخليفة من ناحية ثانية قد نكس ببيعة ولي العهد وأجبره على النزول عن حقه لولده المهدى ! وولاية العهد عن طريق الوراثة في منطق عمرو وفي رأي الاسلام الصحيح مفسدة تضر بالدولة وتقدم الفشل الكسول ليحتل مكان الحازم الاداري الصبور ! فليواجه أبو جعفر بذلك ليكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان ، أما حاشيته المتملقة ، فلا بد أن ينالها

نصيب من اللوم والتفريط ، فقد كانت عون الباطل على رسالته ، وما برحت تميل مع السلطان حيث يميل لتضمن اتجاه الزائف ، وتختلس في نطاق الرياسة ما تصل اليه الأيدى من قصور وضياع وأموال ! وتلك ثالثة الاثافى فى منطق العالم الصابر الزاهد !

وحان موعد اللقاء ، فما أن علم أبو جعفر بوصول عمرو حتى أسرع فى استدعائه وتخطى الى حضرة الخلافة مئات الوجهاء من الاعيان والقواد والعلماء ، ممن قعدوا يلتمسون الاذن ، وينتظرون على أحر من الجمر أن يشملهم الخليفة برعايته ، فيسرع فى قبول المثول ، وقد علم الخليفة من سياقى من العلماء المخلصين ! فوطد نفسه على الاستكانة والامتثال ، وحسبه أن يسمع صوت الحق النزيه بريئا من الاغراض والشبهات ، وأدركته حصافته ، فرأى أن ينتقل من حجرة الخلافة ذات الارائك المذهبة ، والنمارق المزركشة الى حجرة متواضعة ، فرشت بالحصير كيلا يعلن الرجل احتجاجه قبل السلام !!

وقد هش للقاء صاحبه وعانقه وقبله ، ثم رفع اليه عينه وهو يقول فى انكسار : عظنى يا أبا عثمان !

نظر عمرو الى الخليفة نظرة تنطق بجميع مايضمر من سخط وانكار ، ثم جللته سكينة وضيئة جعلت وجهه طاقة من نور ، واندفع يقرأ بعد البسملة قول الله :

« الم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » ، وكرر الآية الاخيرة فى تحد جرىء عنيد ففهم امير المؤمنين مايعنى أبو عثمان ، وملكته رعشة مرنحة فتساقطت من عينه الدموع !! .

فلم ينقطع الرجل عن قوله ، وصاح : ان الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم ان هذا الامر الذي صار اليك انما كان فى يد من كان قبلك ثم أفضى اليك ، وكذلك يخرج منك الى من هو بعدك ، وانى لأحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين !!

وكان سليمان بن مجالد كبير حاشية المنصور يسمع ويرى فاستفظع ماطرأ على الخليفة من حزن واضطراب ، وصاح بأبى عثمان رفقا بأمير المؤمنين فقد أتعبته منذ اليوم !

فرفع عمرو رأسه وقال له : من انت ؟ فقال أبو جعفر : أو لاتعرفه

يا أبا عثمان ؟ قال : لا . وما ابالى الا أعرفه ! فأجاب المنصور : هـذا أخوك سليمان بن مجالد ، فضحك عمرو متهكما وقال : هذا أخو الشيطان ويلك يا ابن مجالد ! خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ، ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته ! يا أمير المؤمنين : ان هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا !! .

أخذ الحاضرون من رجال الحاشية بصراحة ابى عثمان ! وعلموا ان الرجل قد هتك بصائرهم المدخولة بما قال ، وعقـدت رهبة الحق السنتهم فتدافعوا يتلاحظون بنظرات ضارعة منكسرة ، وتطلعوا الى الخليفة فى حذر فسمعوه يقول : ياأبا عثمان أعنى بأصحابك فأسـتعين بهم دون هؤلاء ، فرد الرجل فى قوة : اظهر الحق يتبعك اهله ! .

يالها من ساعة حرجة فرج فيها العالم الناصح عن نفسه بعض مايعتلج بها من شجون لقد ذكر رأيه صريحا فى جبروت الحاكم وطغيان الحاشية ، وبقى أن يعلن رأيه فى المهدى ولى العهد الجديد !! فنظر بين الحـاضرين الى شـــاب مترف عليه دلائل الامارة والجـاه ، وتوقع باستشفافه الملهم أن يـكون الشاب ولى العهد ، فرفع رأسـه ليسأل المنصور : من هذا الفتى يا أبا جعفر ؟ فرد الخليفة : هذا ابنى محمد ، وهو المهدى ، ولى عهد المؤمنين ، فاهتبلها فرصة سانحة وقال : والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل ، وألبسته لبوسا ماهو من لبوس الأبرار ، ومهدت له أمرا أمتع مايكون به أشغل ماتكون عنه !

تضايق الخليفة من صراحة الرجل ، وأراد أن يتخلص من لقائه فسأله فى تصنع : هل من حاجة ؟ فقال : نعم ، فتعجل أبو جعفر يسأل: وما هى ؟ فقال أبو عثمان : الا تبعث الى حتى آتيك ! قال : اذن لانلتقى. قال : عن حاجتى سألتنى ، ونهض قائما فودعه الخليفة ، ومكث حائرا لايدرى مايصنع ، فكأنه تقيد فى مجلسه ، ثم جعل يفكر فى منطق هذا البطل العظيم ، وكيف صدقه القول حين كذب عليه الناس ، وتذكر ـ بكل مرارة ـ فاقته وحرمانه وكيف ضن معهما بكرامته أن يأخذ درهمـا أو دينارا هما بعض حقـه فى بيت المـال ، وتدافعت فى مخيلة الخليفة صور المتملقين والمادحين ، ممن يتلمسون الكسب الكثير وراء نصيحة خادعة ، أو مشورة موهومة ! وكم شاهد فى مدى حياته مئات من هؤلاء يتوجهون اليه وبريق الذهب يخطف أبصـارهم فمـا يزالون يسـألون ويلحفون !!

انه ليكشف دخائل هؤلاء جميعا فيرى نفسه ـ وهو الخليفة

فريسة يتطلع اليها الصائدون بحبائل مستترة ، تدب خفية الى خزائنه ووظائفه ، فتفوح منها رائحة الاثرة والاستكلاب !!

وما يزال صدره يجيش بأمثال هـــذه المعانى ، حيث تجبره على التعبير عنها فى نغم منظوم ، فيجده يغنى بهذه الشطرات البليغة .

كلكم طالب صيد .. كلكم يمشى رويد .. غير عمرو بن عبيـد فأى عالم ذلك الذى رنح أوتار الخليفة حتى دفعه ــ وهو غير شاعر ــ الى مديحه بشطرات من الشعر كانت فى حقيقتها متنفسا سريعا لشاعره المتلاطمة ! ذلكم هو ابو عثمان عمرو بن عبيد !!

أبو حنيفة لا يكترث بالمنصور

كانت شخصية أبى حنيفة أقوى وأعظم من أن تخضع لطغيان ، فقد وهب من عزة النفس ورصانة الخلق ، وشدة الاحساس بالكرامة والرجولة ما جعله بين المناضلين الأماثل قمة شماء ٠

وأكبر الظن أن آراءه الفقهية لم تتمكن من حقب التاريخ على مر عصوره هذا التمكن الصخرى بين الناس ، الا لأن صاحبها الماجد كان ذا شخصية راسخة متمكنة ، تواجه الحجاج فى معترك الفقه ببسالة صامدة ، كما تواجه الحجاج فى معترك السياسة بعزة كريمة !! فقد كان رضى الله عنه من أقوى المتكلمين مناظرة وحوارا ، ثم تحول الى الفقه ، فخلع عليه من جلال المنطق وقوة القياس ودقة الاستنباط ، ما فتح به ميادين مغلقة ، ومهد طرقا مستعصية ٠ وقد كان خصومه فى الرأى الفقهى يدهشون لقوة سطوته وسرعة بديهته ، حتى ليخافوا أن يواجهوه فى معترك النقاش ، وهم بعد أصحاب منطق ونص ، وأهل تفسير وتشريع!!

هذه الشخصية المثالية ، عرفت كيف تحافظ على كرامتها العزيزة ، فى دنيا المطامع والرغبات ، فلم يشأ أن يستظل بوال يغـــدق عليه من رزقه حين يتفرغ للفقه والدرس كما فعل كثير من العلماء ، ولكنه ربأ بعزته أن يمن عليها مان بصنيعة ، فامتهن التجارة ليجد من أبواب الرزق ما يساعده على رفاهة عيشه فى تصون واباء ، وقد صدقت نيته ، فوسع الله عليه كل خير ، وأصبح من الثراء بالموضع الذى يجعله يتصدق بالآلاف والمئين ، وهو بعد مهيب الجانب سامى التقدير ٠

وقد شاء له الحظ أن يحترق بنيران السياسة ، فكشفت عن جوهره الذهبى ، اذ أنه نشأ فى الفترة العصيبة التى أدت الى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، فشاهد عهدين يختلفان فى الأشـــخاص والأسماء ، ويتحدان فيما كان من تهور البغى ، واستفحال الشر ، وأخذ البرىء بذنب الآثم ، وارهاب بما يمنعه الدين والشمم الكريم ٠٠٠ حتى خاف كل مسلم على نفسه ، وأخذ يتوقع الشر صباح مساء !!

كان الحكم الأمـــوى قد طغى شره ، واستشرى خطره ، فالخلفاء يظلمون ، ويعاهدون فيغدرون ، ثم يرسلون من الولاة من يترضـــاهم بالعنف والقهر ، فيبالغ فى اراقة الدماء وتكميم الأفواه دون حســـاب ،

وقد قامت الثورات الناقمة في كل مكان ، فكانت تنتهي بمجازر رهيبة ، تسفك فيها الدماء دون تحرز ، بل ربما كانت شدة الانتقام دليل التغلب، وبرهان الانتصار ، والمشفقون من ذوى الاصلاح في الأمة لا يجدون من القوة ما يدفع البغى فتغلى نفوسهم من الغيظ والحنق متطلعة الى صباح جديد تشرق شمسه بنور الهداية والسداد ، وأبو حنيفة في مقدمة هؤلاء، يرى البغى فيستنكر ، ويهم بالثورة عليه فلا يجد من يلتف حوله ثم يتذكر عواقب الثورات ، وما صنعت بزملائه الفقهاء كزيد بن على وسعيد ابن جبير فيصعد من صدره آهة حبيسة ، ويتطلع الى نصر من الله وفتح قريب !

في أثناء هذا الضيق الكاظم المستحكم جاءه رسول الطاغية يزيد ابن هبيرة حاكم العراق يدعوه الى أن يلى القضاء ، مع فريق من رجالات الفقه والتشريع ، وكان للامام بصيرة لا تخطىء ، فقد أدرك أن هذا الطاغية السفاك ورؤساءه من الخلفاء يريدون أن يتخذوه وأمثاله من العلماء مطية للشر ومركبا للخطر ، اذ يتخذونهم للقضاء فيعلمون الناس أن رجال الفقه وحماة الشريعة يؤيدون حكمهم الطاغى . ويباركون عهدهم الظالم ، فيصبحون أداة تخدير تخذل الحق وتعين الباطل . ويالها من كارثة دهياء .

لقد أجاب الى ذلك بعض الزملاء من الفقهاء ، ولكن الناس معادن مختلفات ، ومعدن أبى حنيفة من الذهب النضار ، فهو لا يخدع بمنصب ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، فأعلن الرفض صريحا واضحا ، وقال لمن يحاوره من العلماء في عزة كريمة : « والله لو أراد ابن هبيرة أن أعد له أبواب « مدينة » واسط لم أدخل في ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن واختم أنا على ذلك الكتاب ، والله لا أدخل في ذلك أبدا » .

واستعظم الوالى الطاغية رفض أبى حنيفة فسجنه أسبوعين عساه أن يرجع فما استكان . ثم أمر بضربه بالسياط . فكان يجلد كل يوم عشرة أسواط حتى تخطى المائة . وأسفى على الهلاك ، ولا يزداد الا ثباتا أمام الله ، فيالعظمة الايمان !

كان ما لابد أن يكون . فقد سقطت الدولة الأموية على طغاتها الجبارين سقوطا أورثهم التمثل والفناء والتشريد ، « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد » جاءت الدولة العباسية ففرح المخلصون لقيامها . وظنوا أن أسرة العباس عم رسول الله سترعى من الكرامة والحق ما أعدره بنو أمية ، فتدعو الى الخير بالتى هى أحسن آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، ولكن الظن قد خاب ، وصدم

هؤلاء المخلصون فى آمالهم حين رأوا الدولة الأموية تعود ثانية ببطشها الغاشم ، وقهرها الظالم تحت ستار أسماء تنتسب الى رسول الله ، وتهدر شرعته فى احقاق العدل واستتباب الأمن ، وكانت محنة قاسية نزلت بالمؤمنين فأخذوا يتساءلون ملتاعين : متى نصر الله ؟

كان أبو حنيفة أشد هؤلاء المخلصين ضيقا بالشر ، وتبرما بالخلافة فاهتبل ثورة «النفس الزكية» وانضم الى رجالها . وأفتى بتأييدها كما فعل زميله الامام مالك بن أنس رضى الله عنهما ، وتعرضا بذلك الى شر كبير ، وخطر محيق ، فقد هال المنصور أن يجد أعلام الشريعة يقفون منه موقفهم من الأمويين . ثم رأى أن يترضى ويصانع ، ليصل بهم الى هدنة مسكنة فيستريح !!

ولم يكن الخليفة يجهل من أبو حنيفة ؟ ، فقد عرفه فى العهد الأموى غيورا لم يخش الا الله ، وهو بعد تاجر ذو ثراء لا يطمع فى مال السلطان أو منصبه ، وله من حلقات الدرس ، ومن تلاميذه المنتشرين فى الآفاق ما يضفى عليه الصيت الطائر ، والذكر الحميد على عزوفه ـ رضى الله عنه ـ عن كل ما يطمع فيه العامة من سيادة قدر ، ونباهة ذكر ، كما عجم عوده يوم احتكم اليه مع زوجته ، فرأى منه فقيها صلبا لا يتخشع ولا يلين ، فقد كان فى شقاق مع زوجته الحرة وأراد أن يقترن بأخرى . فعظم الأمر عليها ولاقته مغضبة ساخطة ، فاحتج عليها بأنه لايصدر فى زواجه بالثانية عن غير أمر الله ، ثم رأت أن تحتكم الى أبى حنيفة وحده ، ووافق المنصور فى سهولة ، ظنا منه أن الحكم الشرعى من الوضوح . بحيث لا يقف أمامه أبو حنيفة ذو الرأى والقياس ، وحانت ساعة الحكم . فقال أبو حنيفة : ليتكلم أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : يا أبا حنيفة كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟ فقال : أربع . فسأله ثانيا : وهل يجوز لأحد أن يقول خلاف ذلك ؟ فقال : لا ، فنظر المنصور الى زوجته متهللا وقال :

« قد سمعت يا هذه ! فتدارك أبو حنيفة يقول فى مجابهة انما أحل الله هذا لأهل العدل يا أمير المؤمنين ، فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل ، فينبغى ألا يتجاوز الواحدة . قال تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة» فينبغى أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه ، فسكت أبو جعفر على غيظ . وطال سكوته ، فاستأذن الامام وخرج ذاهبا الى منزله ، فوجد خادم زوجة الخليفة فى انتظاره يحمل مالا وثيابا ومعه دواب وجارية فرد ذلك فى اباء وقال كلمته المشهورة : انما ناضلت عن دينى ، وقمت ذلك المقام لله ، ولم أرد شيئا من أمور الدنيا !!

وعادت الهدية ثانية ليراها أبو جعفر فيتدبر .

هذا الموقف الحاسم قد أكد للخليفة ثبات الامام ، وقوة يقينه ، ورأى فيه هضبة عسرة المرتقى ، ومطمحا لا ينـــال ، وضمم أن يتغاضى عن معارضته ويجر عليه ذيل التهاون ، ولكن حوادث الزمان لا تتيح له أن يهمل رجلا ذا مكانة عالية ، ورأى مســـموع ، وسيصطدم به رفض أو أراد ، وقد تحقق ذلك عاجلا حين دعا أبو جعفر علمـــاء العراق ، ليأخذ رأيهم فى أهل الموصل ، حين اشترط عليهم أن يستحل دمـــاءهم اذا انتقضوا على حكمه ، ثم ما لبثوا أن خالفوا الشرط فهبوا ثائرين !

قال أبو جعفر لمن حضره من العلماء : ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم «المؤمنون عند شروطهم» ، وأهل الموصل قد اشترطوا ألايخرجوا على ، فان فعلوا حلت دماؤهم باقرارهم الصريح ؟

فرد أحد الحاضرين : يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم ، فان عفوت فأنت أهل العفو ، وان عاقبت فبما يستحقون ، فنظر الخليفة الى أبى حنيفة وسأل : وماذا تقول أنت ؟ ألســـنا الآن فى خلافة نبوة وأهل ايمان !

فرفع الامام ـ نضر الله وجهه ـ صوته يقول : انهم اشترطوا لك مالايملكونه وشرطت عليهم ماليس لك ، لان دم المسلم لايحل ، وشروط الله أحق ماتوفى به .

فاضطرب أبو جعفر ، وامتقع وجهـــه امتقاعا يدل على ما يتلدد فى صدره من غيظ ، ثم أذن للعلماء فانصرفوا ، واستبقى أبا حنيفة فخلا بهما المكان وصاح أبو جعفر : لقد أحرجتنا أمام الناس ، فانصرف الى بلادك ، ولا تفت بما هو شين على امـــامك ، وخرج من المجلس مغضبا ، فخرج أبو حنيفة غير هياب .

وبعد : أفيترك الخليفة أبا حنيفة يعلن عن رأيه صريحا فى جبروت الخلافة وطغيانها ، وله من الاتباع والانصار ما يعتقدون رأيه ويؤمنون بكل أحكامه ، فيتسع الخرق ، وتهب الريح أم يبادر بتلمس أسباب المكيدة له ، فيرتاح من خصم عنيد ؟ لقد تذكر أبو جعفر أن يزيد بن هبيرة قد عرض عليه القضاء فرفض فكان نصيبه السجن والضرب بالسـياط ، فلماذا لا يعرض عليه القضـــاء كما فعل يزيد ، والرجل لا محالة رافض اباء ، فاذا وقف موقفه السابق ، فقد دنت ساعة القصاص وكان أبوحنيفة منطقيا مع نفسه حين جاهر بالرفض . فالطاغية الظالم فى منطق الاسلام طاغية يجب أن يحارب سواء أكان أمويا أم عباسيا ، وحكم القضاء لديه لابد أن يسير وفق هواه ، والا فليست لدى القاضى العادل قوة ما ، تحتم التنفيذ والارغام ، وأصر أمير المؤمنين وأصر الامـــام ، وحلف أبو جعفر

ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل وقال : انى لا أصلح للقضاء • فقال الربيع بن يونس وزير أبى جعفر :

« ألا ترى أمير المؤمنين يحلف » فرد أبو حنيفة فى صراحة عنيدة :

أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى !! فأمر به أبو جعفر ، فقيد الى السجن واستدعاه بعد أيام وسأله : أترغب عما نحن فيه ؟ فأجاب : ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ لا أصلح للقضاء • وهنا صاح الخليفة منفعلا : كذبت •

فلم يخن الامام منطقه الصائب وقال : لقد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى الى الكذب ، فان كنت كذابا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين بعدم صلاحيتى للقضاء !!

واشتط النزق بالمنصور ، فأمر بالسياط أن تنهال على جسد الشيخ الواهن تشويه فى محبسه الرهيب ، حتى اكتملت مائة وثلاثين سوطا ، فخرج عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة وصاح به : لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف ، هذا فقيه أهل المشرق يضرب بالسياط فى غير جرم ، دون أن تخشى انتقام السماء !!

فتراجع أبوجعفر وقد هدأت نفسه قليلا، فأمر باطلاقه من السجن ، وأرسل اليه ثلاثين ألف درهم ، فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له : لو تصدقت بها على المحتاجين ، فرد فى استهانة : ومن يضمن لى أنهـــا جمعت من طريق الحلال •

وبلغت الكلمة آذان المنصور فكانت عليه أشد وقعا من النصال ! ثم جاءته الأنباء بوفاة أبى حنيفة متأثرا بجراحه ، فأطرق قليلا يستعرض عجائب بطولته ، ثم رأى أن ينصرف الى مهـــام خلافته ، فقـد استراح أبو حنيفة حين انتقل الى جوار الله ، راضيا مرضيا وبقى هو حائرا يفكر فيما أسلف فى دنياه من أهوال يطول عليها الحساب • !

عظمة مالك بن أنس وإباؤه

لقد كان الامام مالك معاصرا لقرينه وندّه الامام أبى حنيفة ، جمعتهما محنة واحدة حين اشتركا فى الافتاء ضد أبى جعفر ، فكان من الأنسب أن نخصه بهذا الحديث بعد ما تقدم عن صاحبه الكبير !!

على أن هناك فرقا واضحا بين الرجلين فى مسلكهما ازاء الخلفاء ، فأبو حنيفة مجانب لا يقرب السلطان ، ومالك يرى المنفعة فى زيارة ولى الأمر ، ويظهر ذلك جليا واضحا فيما ننقله من هذه النصوص .

فقد روت كتب التاريخ قوله رضى الله عنه : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، فان وعظه ونهاه فهو الفضل الذى ليس بعده فضل ! .

وسئل : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجورون ويظلمون . فقال للقائل : رحمك الله وأين التكلم بالحق !!

بل انه ليمعن فى الأمر روية وتفكيرا ،حين يدركه الضعف الجسمى ، فيعتزل المسجد بعض الوقت ثم لايعتزل دار الحكم ويسأل فى ذلك فيقول . وأما اتيانى الامراء فبالحمل منى على نفسى ، فانه ربما استشير بعض من لا ينبغى أن يستشار !!

واختلاف الامامين أبى حنيفة ومالك فى هذه الناحية مما غرسه الله فى قلوب البشر ، اذ لو شاء ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولكل وجهة هو موليها . !!

والحق ان جلال العلم ووقار الايمان كانا يلفان مالكا بهالة وضاءة ذات تقدير واكبار ، حتى انه ليعارض رؤساء الدولة وأمراءها دون وجل أمام الاشهاد ، وتبلغ به عزة العلم مبلغا تهون لديه أبهة الحكم ، وروعة الجاه ، وقد عرف الامام قدره الرفيع فلم يهبط من أوجه المثالى بل ظل سامقا تتطلع اليه العيون فى خشية واكبار .

لقد سعى الخليفة المهدى الى منزله ، ووراءه حشد من الاتباع والأجناد ، ثم استأذن فى الدخول وظن الناس أن مالكا سيسرع باستقبال

أمير المؤمنين على عجلة واندفاع ، ولكن الوقت يطول ، والامام داخل منزله لا يبرح ، والخليفة محرج لا يدرى ، ماذا يصنع أمام رعاياه ؛ حتى اذا نفد الصبر بعد أمد طويل ، خرج الامام متئد الخطو ليقول فى صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ، ليرى الناس لدينا ستر السماء ونعمة الله !!

وألح عليه المهدى أن يسعى الى قصره ليعلم ابنيه موسى وهرون . فنظر الرجل فى هدوء الواثق ، وصاح فى حزم : لا يا أمير المؤمنين العلم يؤتى ولا يأتى . واضطر الخليفة أن يبعث ولديه ، فكانا يقفان على المنزل فيدقان الباب ، والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، حتى يأتى الآذن فيسرعا بالدخول !

ومضت الأيام ومات المهدى ، ومن ورائه الهـــادى وأصبح هارون الرشيد صاحب الأمر فى ديار الاسلام ، واشتاق الى أن يجالس مالكا ، فى قصره ببغداد وأنى !! وقد تعذر ذلك على أبيه وأخيه ، ثم رأى أن يكبت رغبته ، ويزوره بالمدينة فى موسم الحج ، فيسمع منه حديث رسول الله ليعلم القاصى والدانى أن الخليفة العظيم من تلاميذ امام دار الهجرة ، فتزداد مكانته بين الناس ، ويستشعر لذة تغمر نفسه بهجة وارتياح ، وعلم الامام أن أمير المؤمنين ناهض لزيارته ، ليأخذ مجلس التلميذ من الاستاذ ، فاغتسل رضى الله عنه ولبس ثيابا جددا ، وتطيب ووضع مجامر النـــد والعود ، وهذا ما كان يفعله دائما تعظيما لحديث رسول الله لا حفاوة بالزائر الكبير !! حتى اذا حضر الخليفة قال له مالك : تقرأ على ، فخشى الرشيد أن يخطىء أمام الجمهور فقال فى ارتباك : تقرأ أنت ان أردت ، فقال مالك ما قرأت على أحد منذ زمان ، فأطرق الرشيد ثم قال : اذن فأخرج الناس عنى ، فرد مالك فى روعة وايمان : ان العلم اذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينتفع به أحد !! فقال الرشـــيد : ليقرأ بعض أصحابك ان أردت ، فأمر مالك تلميذه المغيرة فقرأ ، وجعل يفسر مايقرأ ، والرشيد وحاشيته وعامة الحاضرين منصتون ، كأن موسيقى عذبة تترنم بها ملائكة الله فى أجواز السماء !!

هذا الاعتزاز النادر بالعلم قد سما بأصحابه سموا لا يبلغه غير ذوى النفوس الموهوبة ، من حملة الرسالات وأرباب الأصلاح وقد حرص مالك على التزامه ، مهما ترك من الأثر الفعال ، فقد دخل الرشيد ذات عام عليه ، فأخذ مكانه الى جواره فى مجلس الحديث ظانا أنه لم يفعل فى ذلك مايوجب الملام ، ولكن مالكا يصيح : يا أمير المؤمنين : من تواضع الى الله رفعه ومن تكبر على الله وضعه ، فيلتفت الرشيد مأخوذا ويسأل : ماذا صنعت ؟ فيقول مالك : ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم فى مجلس علمه ،

فقم واقعد بين يدى ، فأسرع الرشيد ممتثلا حتى اذا انتهى من درسه قال لبعض خلصائه :

« اننا نتواضع لنتنفع به . وقد تواضع لنا سفيان بن عيينة فلم ننتفع به شيئا .. ونحن نقول كلمة الحق حين نذكر للرشيد هنا هدوءه وانتصاحه ، وقد كان فى وسعه أن يغضب على الأقل . أو يبادر بالانسحاب !!

ولم يبلغ الامام رضى الله عنه هذه المنزلة ، اعتباطا بل ارتفع الى قمتها العالية بعد جهاد طويل ، وامتحان شاق تجلى عن ايمانه وعزمه ، فصارت له فى نفوس المسلمين مكانة مبجلة ، وانتشر تلاميذه فى الآفاق يحملون المأثور من علمه ، والجليل من افعاله ، وصارت الرحلة الى مدينة رسول الله واجبا أكيدا ، يقوم به طلاب العلم فى شتى الامصار ، ليروا مالكا وينقلوا افتاءه ، ويسجلوا اسناده . وكان اذا بدأ الدرس خشعت الاصوات ، وأطرقت الاعناق حتى قال فيه القائل :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والحاضرون نواكس الأبصار

وحسبك أن تزدحم مدينة رسول الله لعهده بتلاميذ الصحابة والتابعين ثم يمضى المثل الشرود قائلا : لا يفتى ومالك فى المدينة !!
وسنعرض هنا بعض ما تحمل فى سبيل الحق من عذاب ، حين جابه الطغيان بافتائه القاصم ، فأرهب الخلافة وأفزع السلطان !!

لم تكد الأيام تمر بمفاجآتها وصعابها على الدولة العباسية حتى تألبت على أصحابها الجموع الحاشدة ، اذ لمست مدى الخيبة الأليمة فى آمالها وأهدافها ، ورأت أن السفاح والمنصور كليهما يسيران فى طريق بنى أمية تنكيلا بالضحايا ، وسفكا للدماء ، ونظر المسلمون فوجدوا ان أصحاب الحق من العلويين يحاربون ويضطهدون ، كأن أمية لا تزال تأخذ على أبناء فاطمة طريقهم ، فلا يجدون نفعا فى الارض أو يطيرون بجناح الى السماء ، وتجمعت الرغبات فى الصدور ملتهبة محتدمة ، حتى تمخضت عن ثورتين بالمدينة والبصرة قام بهما محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم بن عبد الله !! وارتجف المنصور ارتجافا أذهله وشرد أمنه ، فأخذ يتوقع الشر الماحق من حين الى حين . ثم جاءته الأنباء أن كبار العلماء من أمثال أبى حنيفة ومالك يؤيدون الثائرين ، ويرسلون الفتاوى فى تحبيذ الجهاد ومحاربة الطغاة !! فاستعان الخليفة بحيلته الماكرة ، وأخذ يخادع ويداهن ، حتى استطاع أن يستميل الكثيرين من مناوئيه باذلا مغريات الوعود من جاه ومنصب وثراء . ولكن أحابيله الخادعة لم تستطع أن تمتد الى الامامين الكبيرين فى شىء ، واذا كنا فى الموضوع السابق قد تحدثنا

عن أبى حنيفة ، فنحن هنا نتحدث عن مالك لنسجل أنه شاهد بعض المترددين فى تأييد الثورة ينكصون عنها بحجة انهم بايعوا المنصور ، فلا يجوز لهم أن ينقضوا البيعة بعد أن حلفوا الايمان المؤكدة بالطلاق على الطاعة والاذعان ، فأصدر رأيه الحاسم بأن طلاق المكره لا يقع ، وهم قد بايعوا المنصور مكرهين فلهم أن يتحللوا من بيعته غير آثمين .. وطارت الفتوى الى المنصور فكادت أن تزلزل ثباته ثم رأى أن يستوثق فأرسل يهادنه ويستميله فما رجع رسوله بطائل ، بل قال له انه استمع الى مجلس الامام بالمدينة ، فرأى سائلا يسأله عن الثائرين على الخلافة : هل يجوز قتالهم ؟ فأجاب فى غير تحفظ : ان خرج الثائرون على مثل عمر بن عبد العزيز عدلا واستقامة جاز قتالهم ، والا فهم طلاب حق مشروع !

وجاء سائل آخر فسأل عن نكاح المتعة بعد أن فشا بين الأمراء من بنى العباس ، وفيهم خاصة المنصور وأرباب مشورته ، وأعوان طغيانه ، فأعلن انه نكاح باطل وان ما يروى فى حديث ابن عباس عن جوازه مكذوب موضوع !! وليست الفتوى فى هذه المسألة مشكلة فقهية يختلف فيها رأى عن رأى ، ولكنها طعن سياسى يتجه الى عصابة الحكم ويدمغهم بالعصيان ، فيزيد الناس نفورا وامتعاضا ، ويبذر كثيرا من بذور الفتنة والشقاق !!

وقد شاءت الاقدار أن يقضى أبو جعفر على الثورة ، ويقتل بنى عمومته من الثائرين ، وليس من منطق الاشياء فى قانون متجبر طاغية كالمنصور أن يعفو عن خصومه من العلماء ، ومالك فى طليعتهم ، فصب عليه سوط عذابه ، وأمر عامله على المدينة فجرده من ثيابه دون ما يستر العورة ، ثم طرحه على الأرض وأوثق رجليه ويديه بالحبال الغليظة ، وانهالت السياط على الجسد المؤمن الصابر حتى بلغت الثمانين وترك مغمى عليه وهو بعد شيخ كهل ، يسير فى العقد السادس من عمره ، وقد بقيت آثار السياط على جسده ، فلم تفارقه حتى لقى الله !!

وكان فى الرجل بقية من قوة ، فاستطاع أن يحفظ توازنه بعد المحنة ، على حين مات أبو حنيفة متأثرا بسياطه ، وشاع الحزن فى بغداد وسائر مدن الاسلام على الامام الفقيد والامام المريض ورن الصدى الساخط فى أذن المنصور فندم ولات ساعة مندم ، وعلم أن الامر قد نفذ فى أبى حنيفة اذ فصل الموت ما بينه وبينه ، ولكن مالكا لا يزال حيا بعد !! فسعى اليه معتذرا متندما ،وأخذ يحلف أمام الجموع الناقمة أن عامله على المدينة هو الذى قام بجلد الامام دون مشورته ، وأتقن الدور فعزل العامل وعذبه ، تحقيقا لقول رسول الله : من أعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه بعذاب !!

وأخذ يزور الامام ويلاحقه ، باعتذاره تنفيسا عن ألم يجيش بنفسه، فلا يجد التسكين !! وقد بالغ فى احترامه وتوقيره مبالغة ورثها عنه ولده المهدى ، فحفيداه موسى وهرون ، على نحو ما سلف فى صدر هذا المقال ٠

وبعد فمهما تجبر أبو جعفر وتكبر ، فقد أرغمته عظمة الايمـــــان وجلال العلم ، وثبات اليقين متجمعة فى مالك رضى الله عنه ، أن يقول له فى انكسار : والله الذى لا اله الا هو ما أمرت بالذى كان ولا علمته ، وانه لايزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وانى اخالك أمانا لهم من عذاب الله ، وهو قســـــم سياسى محنك يبطله الحق الواقع والبرهان الملموس ٠

لقد كان مالك رجلا ! وحسبه تلك الرجولة من فخر ٠!

يعقوب بن السكيت يستشهد

كنت أشرت في عبارة موجزة بأحد اعداد مجلة الأزهر (صفر ١٣٨٠ هـ) الى ابن السكيت وموقفه الجريء في نصرة الحق . ثم قابلني من صفوة القراء من يطلبون تفصيل الحديث عن هذا الشجاع الباسل ليكون بجرأته الصريحة قدوة محببة لمن يلتمسون المثل الصالحة لدى علماء يقدسون الحقيقة ويجابهون الطغيان .

وقد وجدت في نفسي نشاطا سريعا الى الحديث عن الرجل .. لأن الذين كتبوا حياته لم يهتموا كثيرا ببطولته النادرة .. واستشهاده المثالي . وانما أفاضوا في تحليل مكانته اللغوية والادبية . وتعرضوا لأساتذته وتلاميذه من أئمة اللغة والعلوم اللسانية ، وسردوا فهرس مؤلفاته وتصانيفه ثم أشاروا الى موقفه البطولي في سطور قليلة متضائلة . مع أنه ذهب شهيد هذا الموقف النادر ، فلا بد أن تفصل أدواره الرائعة باهتمام ، واذا كنا نردد في كل مناسبة مواقف العز بن عبد السلام والمنذر بن سعد ، وسعيد بن المسيب ونتخذهم قمما شامخة في دنيا الصراحة المؤمنة ، فلماذا لا يقرن بهم يعقوب بن السكيت وقد بذل دمه في سبيل رأيه . أما هؤلاء فقد حفظت لهم أقدارهم في الحياة ولم تكن لأحدهم هذه الخاتمة المؤسية الأليمة وما أريد بذلك أن أبخس جهودهم العالية . معاذ الله ، ولكني ألحق بهم زميلا عالي الهمة وافر العلم أدى أمانة دينه حين جاهر حاكما ظالما بقوله الحق فخسر الدنيا ليفوز برضوان من الله أكبر .

كانت الفترة العصيبة التي شهدت حياة ابن السكيت من أحلك الفترات في التعصب والاضطهاد ، لان المأمون مع سعة أفقه وعزارة معارفه وولوعه بالبحث والمناظرة لم يشأ أن يترك الناس أحرارا في آرائهم الخاصة . بل ضاق بخصومه وشن عليهم حربا ظالمة لا طائل وراءها غير التنكيل والتعذيب والقتل في بعض الاحيان ، مع ان صاحب الرأى الحر في مضمار البحث العلمي يجب أن يفسح صدره لمعارضيه ، اذ ان من الجور الشائن أن نلزم كل فرد من أبناء العقيدة الاسلامية بآراء المعتزلة في خلق القرآن فاذا كانت لبعض المخالفين وجهة نظرهم الخاصة صحيحة أو باطلة فليس لنا أن نزجهم في أعماق السجون ، وأن نعذبهم بالسياط ونكبلهم بالاغلال ، وعاشق الحرية الفكرية هو الذى يمنحها أنصاره وخصومه على السواء . أما أن يستغل نفوذه السياسي لمحاربة مذهب

فكرى ، لاصلة له بدعائم عرشه ، وهيبة سلطانه فهذا ما يؤاخذ به فى معرض الموازنة والحساب ·

وقد تلا المأمون من الخلفاء من نهجوا نهجه فى التعذيب والاضطهاد ، فجاء المعتصم والواثق والمتوكل ليضايقوا العـــامة والخاصة بأعنف ضروب الاعنات · واذا كان المتوكل على الله قد منع القول بخلق القرآن ونصر أهل السنة فى مذهبهم الخاص فانه انقلب طاغية جبارا يضطهد أنصار الاعتزال ويملأ بهم المحابس والسجون ، وهذا ما لا يرتضيه منصف حكيم ، لأننا لا ندعو الى نصرة فريق على فريق ، ولكننا نأمل من الحـــاكم أن يترك العلماء ومعتقداتهم ، ما دامت فى معتركها الفكرى لا تهدم أصلا من أصول التشريع ، أو تعارض ما يراه من سياسة الدولة فى الحكم والتنفيذ ·

فى هذا العصر المضطرب الثائر كان ابن السكيت يتبوأ مكانه الادبى فى مضمار التدريس العلمى والتاليف اللغـــوى والصرفى ، فأصدر كتبا كثيرة لا يزال بأيدينا منها كتاب (اصلاح المنطق) شاهدا بمنهجه وعمقه واستقرائه على مكانة الرجل ودقته · وقد ذكر ياقوت فهرس مؤلفاته ص ٥٢ جـ ٢٠ من معجم الادباء فأوقفنا على كنز متعدد المعادن متنوع النفائس· فالشيخ الثبت يؤلف كتاب القلب والابدال وكتاب النوادر وكتاب الألفاظ وكتاب فعل وأفعل وكتبا مختلفة فى الفرق والامثال والوحوش والشجر والحشرات والايام والليالى وسرقات الشعراء ومعانى الشعر مما يدل على ذهن متقد وفكر جامع مستوعب واتجاه متنـــوع مختلف ·· ونحن نظلم الرجل ·· اذا وقفنا به عند المضمار اللغوى والصرفى كما يصنع مترجموه ولو كانت بأيدينا مؤلفاته الســـالفة لوضعناه فى مكانه الموسوعى على التحديد لا على التقريب ·

هذا العالم المفضـــال كان على ثرائه العلمى ذا نفس ثرية حافلة بالخلق العالى والتواضع الحميد ، وكان يزن الاشـــياء بميزان الاسلام لا بميزان التقاليد المترفعة فى عصر مختلف الأجناس والنزعات ، وهـــو بعد ــ كوالده العالم اللغوى اسحاق السكيت ــ كثير الصمت فى المحافل وهو صمت المفكر المتأمل الذى يغنيه خاطره المزدحم عن الاشـــتراك فى محادثة لا تسعى وراء هدف ، أو تعمـــد الى غير الاعلان والدعاء ، ولعله بسكوته المتأمل قد وفق كثيرا فى رصد معلوماته وتتبع سوانحه وتحليل خواطره ، فاذا انكفأ الى تسجيل بحوثه أو القاء دروسه ساعده التأمل الصامت على الجودة والابداع ·

قال الفراء : سألت ابن السكيت عن نسبه فقال فى تواضع : خوزى ــ أصلحك الله ــ من ذردق · فمكثت أربعين يوما فى المنزل أستحى من لقاء ابن السكيت لأنى سألته عن نسبه فصـــدقنى · وقول الفراء على

اقتضابه يرشدنا الى شيء كبير جدا عن ابن السكيت ·· فالرجل وهو في مكان الصدارة العلمية لا يخضع لمصطلحات عصره الزائفة فينكر مولده ومنشأه ، بل يعترف انه خوزي من ذردق · وقد وقفت كثيرا عند هذه العبارة لان مدلولها اللغوي وحده لا يفيد الا انه من خوز ستان والنسبة اليها خوزي · ولكن مدلولها السياقي يلقي ايحاء مريبا على منزلة هذا المكان انتمس . والا فكيف يستحي الفراء من صدق الاجابة حتى يمكث أربعين يوما لا يقابل ابن السكيت · ولعل مما يؤكد هذا المدلول السياقي بايحائه المتواضع ما قرأته بالجزء السابع من معجم الادباء ص ١٠٩ من أن أبا عبيدة اللغوي دعا تلميذه أبا عثمان المازني فنهره ، وقال : لا تجلس الى فسأله المازني عن سبب ذلك ، فقال أبو عبيدة : رأيتك مع انسان خوزي سرق مني قطيفة ·· مهما يكن من شيء فقد كان ابن السكيت أكبر من أن يعترف بأوضاع زائفة أو يقيم اعتبارا لقيم تافهة تأخذ البريء بجرم المذنب لو صح ان ساكني هذا الاقليم مرقة سارقون ، ونحن بعد نرى كل مكان في الدنيا لا يخلو من الطيب والخبيث . ولم يخل ما كتب في سيرة هذا الامام الكبير من افتراء مغرض ، اذ اننا نطالع عنه وعن غيره من كبار المؤلفين أخبارا كاذبة لا تثبت لنظرة واحدة من نظرات النقد النزيه ، والسبب الاول في اختلاق هذه الاكاذيب هو الصاق المعرفة العلمية بالخلفاء والحكام تزلفا وملقا ، ثم يجيء من الرواة من ينقلها دون تمحيص ، مع انه لو فهم ان مهمة المؤرخ لا تقف عند الجمع الحاشد ، بل تتعداه الى التسديد والتصويب لاتضح له بجلاء باطل ما يسجله عن الأئمة المتضلعين · فقد أجمع مؤرخو ابن السكيت على رواية هذه الحادثة الملفقة · والرواية هنا عن ياقوت (معجم الادباء جـ ٧ ص ١١٧ في ترجمة أبي عثمان المازني ونقلها ابن خلكان في الجزء الخامس من الوفيات في ترجمة ابن السكيت نفسه) :

قال الواثق لأبي عثمان : سله ـ أي ابن السكيت ـ فقال المازني لصاحبه ما وزن نكثل من الفعل فأجابه ابن السكيت · نفعل · فقال الواثق غلطت ثم قال المازني فسره فقال المازني · نكثل تقديره نفتعل واصله نكثيل · فانقلبت الياء ألفا لفتح ماقبلها · فصار لفظها نكتال · فاسكنت اللام للجزم لأنه جواب الأمر فحذفت الالف لالتقاء الساكنين ·· فقال الواثق هذا هو الجواب لاجوابك يا يعقوب ·

فهذه النادرة الصرفية من الطرائف المختلقة · لان حذف العين في هذا الوضع ليس من الدقائق التي تفوت مبتدئا في قواعد الصرف فضلا عن امام كابن السكيت ألف كتابا حافلا عن (القلب والابدال) وكتابا آخر عن (فعل وأفعل) ثم لا أدري هل كان الواثق أعلم بقواعد التصريف من ابن السكيت حتى يقول له أخطأت ثم يقول للمازني هذا هو الجواب ··

وأين تلقى كل ذلك ؟ مع أن رواية أخرى ذكرها أبو الفرج وياقوت وعشرات غيرهما تقول : ان الواثق نفسه ·· قد استبدعى أبا عثمان المازنى ليسأله عن خبر ان فى قول الشاعر :

أظلوم أن مصابكم رجلا ألقى السلام تحيـة ظلم

فليت شعرى أيفطن الى العين المحذوفة من لايفطن الى خبر ان ؟ ان الذين يحاولون أن يرفعوا الخلفـاء فوق مسـتوى المحققين من العلماء ليفضحون انفسهم حين يخالفون منطق الاشياء فيأتون بمـا تقوم آلاف الشواهد على دحضه . وكأن الاقدار أرادت أن تكشف مبالغاتهم المقيتة حين جعلت هذه الروايات المفتراة تتعارض وتتناقض ليهدم بعضها بعضا ثـم لتجلو أنقاضها الشائنة عن ميدان الحقد حين يكشفها باحث مدقق · هذه أضواء متواضعة نرسلها من بعيد ، لتكشف ملامح ابن السكيت · فتمهد بذلك الى حديثنا عن بطولته الباسلة ·· وقد كتب عليه أن يقوم بدوره المثالى فى عهـد المتوكل على الله · ليلقى مصرعه الفاجع على يديه فيذهب شـهيد الرجولة فى حومة الكرامة والاباء · كان المتوكل على الله مبذرا متلافا وطاغية سفاكا ·· أجمع على ذلك مؤرخوه فى الحديث والقديم حتى أطلق عليه ثيرون العرب · وفى عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسـية اذ ترك أمور الدولة لقواده ، وانغمس فى الملذات والشراب وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين ولم يبن أحد من الخلفاء من الابنية مثل مابناه فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثمانين ألف ألف درهم والقصر الغريب أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم ، والقصر المختار أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم ، والقصر المعروف بالوحيد أنفق عليه ألفى ألف درهم الى قصور مماثلة مثل قصر الماحوزة ، وقصر الجعفرى ، وقصر البهو ، وقصر اللؤلؤة ، وقصر الكامل ، مما يوقف القـارىء على تبذير أخرق لا يرعى مال العامة ، وموارد الدولة · كانت هذه القصور جميعها تحتل مكانا فسيحا بسر من رأى يسـمى (المتوكلية) وللبحترى فى أوصافها من الابيات ما يعرفه الدارسون . وهو الى ذلك السفه الأرعن ، والظلم الباطش يتقدر بسبب آل البيت ويرسل أعوانه الى كربلاء فيهدمون قبر الحسين ويحطمون ما حوله من الدور نسفا واحراقا ثم يعقد المجالس من علية وزرائه وخاصته ليشهدوا المضـحكين ممن يمثـلون أبا تراب ويستهزؤون برهط على وبيته . ويلتفت الخليفة الى جلسـائه ليسمع صيحات الاعجاب . ويرى بسمات التأييد فيعتقد انه بطل فاتح رجع من الميدان مكللا بغار النصر ومسجلا أعظم معارك التاريخ .

وقد عز على ابن السكيت أن يكون خليفة المسلمين بهـذه الضعة الثافهة من الرعونة والاسفاف · وآلمه أن يسمع جلساؤه ـ وفيهم بعض

العقلاء والمتضلعين ـ أفذاذ السباب وأوضار الشتائم تقال على على وفاطمة والحسن والحسين وصفوة آل بيت الرسول ثم يضطرون الى الملق المنافق فيبتسمون ضاحكين ·· ليته لم يغش مجلس الخليفة قبل اليـــوم حتى لا تقذى عينه بما يؤلم من المشاهد · وتصك مسامعه بما يصم من الشتائم·

انه ليتحدث فى همس الى معارفه ليكون رأيا عاما يستطيع أن يجابه به هذا البغى السافر · ولكن نفرا ممن خسروا ضمائرهم المتيقظة يستمعون الى ابن السكيت لا ليعاونوه على ما التزم من اصلاح ولا ليلوذوا بالصمت حين تعذر عليهم أن يرتفعوا الى مصاف الرجال ، بل لينقلوا الحديث الى المتوكل واشين متملقين ·· وتأتى الانباء للطاغية فيصمم على أن يخزى الشيخ فى مجلسه ليظهر باكيا يستنكر وينزلف ويقسم الايمان المغلظة أنه لم يقل ولن يقول · هكذا تصور المتوكل على الله · فأرسل بمن يدعو الرجل لساعته · فأقدم فى وقار المؤمن وهدوء الواثق ·· ثم فتح عينيه ليرى جلساء الطاغية يتغامزون متضاحكين والخليفة ينظر اليه فى اشمئزاز مترفع وقد جلس بين ولديه الاميرين ثم يسأل فى تعاظم :

يا يعقوب أترى الاميرين هذين ؟! فيقول فى هدوء وقور : أراهمـــا يا أمير المؤمنين · فيهز الخليفة رأسه فى سخرية ويبرز أسنانه مستهزئا ثم يسأل : أيهما أحسن ؟ ولداى هذان أم الحسن والحسين أيها الشيخ المجنون ؟

فرفع يعقوب رأسه فى صلابة ·· واتجه بنظره الفاحص الى غريمه ثم قال بصوت مرتفع زاده جلال الايمان ووقار الشيب روعة وتأثيرا : ان قنبرا خادم الحسن والحسين أحسن منهما ومنك يا أمير المؤمنين ·

صدم المتوكل بمـــا لم يكن يتوقع وكسا الخزى الاحمر وجـــوه جلسائه · فقام كالثور الهائج يرغى ويزبد ·· ثم أمـر غلمانه الاتراك فطرحوا الشـــيخ أرضا ليدوسوه بالنعـــال · ثم ليتركوه فى ســكرات النزع ·· فيحمل الى داره فاقد الادراك · ويقلب المحتضر الشهيد عينيه فى أهليه مودعا حتى اذا قضى وطرا مما يريد، جاء اليقين فلقى رضوان الله ·

ويشاء القدر الساخر أن يرى المتـــوكل اجابة سؤاله صريحة دون كتمان حين يتآمر أحد هذين الاميرين المفضلين على حياته · فيلقى مصرعه ذليلا ضارعا بتدبير ولده تحت سيوف الخدم من الاتراك ·· هؤلاء الذين فرغوا من اعدام ابن السكيت ، ليتهيئوا بعد قليل لسحق الطاغية العنيد · فتأكله سيوف الاوشاب فى ليلة رهيبة دامية وتقذف جثته فى العراء · ويراها الناس فيشمتون بالصريع ويترحمون على يعقـــوب ثم يصيحون دهشين ·· ما أعجل الثأر · لقد انتصفت السماء ·

أبو جعفر البهلول يقهر الباطل

- ٢ -

كلفت بالبحث في تاريخ القضاء الاسلامي فشاهدت صفحات لامعة تغرى بالتتبع والاستقصاء ووقفت على جهود محمودة لنخبة ممتازة من رجال الحق وأنصار العدالة .. فتعجبت كيف لا تجمع هذه الدرر الوضيئة في عقد نضيد يكون موضعا للمفاخرة والمباهاة .

ونحن لا نستغرب اذ نجد رجال القضاء في عصور الاسلام الزاهية على جانب كبير من التحرر والدقة . فقد تمكنت تعاليم الاسلام من نفوسهم فعرفوا الله حق معرفته . وقرءوا الكتاب والحديث . ودرسوا مسائل القياس وقوانين النظر . هذا الى ما يشرق في قلب المؤمن النقى من نور يهديه الى الحق مهما تكاثف الظلام .

ومن هؤلاء الأئمة الأفذاذ : القاضى أبو جعفر احمد بن اسحق بن البهلول التنوخي الانبارى . وقد أجمع الذين كتبوا عنه على سلامة استنباطه وصحة توجيهه ، وصدق تعليله . وأنت تجدهم يصفونه — في اسهاب زائد — بالبلاغة العالية اذا خطب أو ترسل . كما ينقلون شذرات ثمينة من شعره تنبىء عن عاطفة وذوق ، ويجعلونه حجة في التفسير والحديث والرواية والاسناد . أما تبحره في الفقه على مذاهب أهل القياس فقد بوأه منصة القضاء أكثر حياته التى زادت عن الثمانين ، واذا اجتمع لفاضل من الناس كل هذه المميزات الرفيعة ، فماذا ينقصه من الشمائل والصفات ؟

على أننا لا نكبر الرجل لعلمه وحده . فكثير من الائمة في القديم والحديث قد جاوزه في التحصيل والدراية ، ولكننا ننظر بكثير من الاجلال والاكبار الى صرامته في الحق دون مبالاة ، وهجومه على الباطل في غير هوادة ، مهما جر عليه ذلك من بلاء وعنت ، وناهيك بمن يفاجىء رؤساءه وصدور الدولة في عهده بما لا يطيق المؤمن الورع صبرا عليه من ميل عن الحق ونكوص عن الجادة وولوع بالبهتان .

وهأنذا أقدم للقارىء الكريم موقفين متشابهين له في نصرة الحق . راجيا أن يكون أسوة حسنة ، ومثالا يحتذيه الناس .

نحن فى أوائل القرن الرابع الهجرى · وقد انحدرت الدولة العباسية من أوجها الشاهق الى وهدة سحيقة سقطت فيها هيبة الخلفـــاء والامراء وتنازع الوزراء وأعيان الدولة على الحكم شر تنازع وأبشعه · فكان هم كل وزير أن ينكل بمن سبقه فيخلق له الاتهـــامات الخطيرة التى تطيح بحياته ليأمن على منصـــبه وجاهه . فلا يجد المنافس العنيد · وقد كان حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله يضيق ذرعا بسلفه الوزير أبى الحسن بن الفرات . فحاك له من خياله الآثم أفظع تهمة يمكن أن توجه الى انسان فى ذلك الوقت ، حيث اختلى بالخليفة وأخبره أنه عثر على وثائق مهمة تثبت اتصال ابن الفرات ببعض العلويين المطالبين بالخلافة . وأن الحزم يوجب أخذه بالشدة لتجرى الأمور فى وضعها الصحيح · وقد اهتم الخليفة المقتدر بالأمر · فعقد لفوره مجلسا برياسته لمحاكمة الوزير السابق · وقد أحضر فيه على بن عيسى وأحمـــد بن اسحق بن البهلول وأبا عمر محمد بن يوسف · وجىء بابن الفرات مخفورا الى المحاكمة حيث وقف غريمه الوزيرحامد بن العباس أمام الخليفةيبسط التهمة الخطيرة ويبين مغبتها الجريئة ثم اتجه الى الباب فجأة وصاح بأحد الحجـــاب : أدخل الجندى فى الحال ·

فدخل جندى مديد القامة مكتمل الصحة · فاتجه حامد الى المقتدر وقال : لقد ضبطت هذا الجندى قادما من مدينة « أردبيل » ومعه كتب خاصة من ابن الفرات الى ابن أبى الساج يطلب فيها معاونة الداعى العلوى وتجهيزه للغدو الى بغداد ، حيث يستقبله ابن الفرات فيتعاونان معا على تقويض الخلافة العباسية وانهائها الى العلويين ·

ثم التفت الوزير الى الجندى وقال له : قل ما سبق أن اعترفت به لدى · فقال الجندى : لقد ترددت بضع مرات على ابن الساج فى أردبيل أحمل الرسائل المتنوعة من ابن الفرات جاهلا عاقبتها الخطيرة ، فهـــو المسئول عنها وحده وما أنا غير حامل قدم ·· يتكسب بالمسير والتجوال ·

دهش الخليفة من هـذا الاعتراف الجرىء وطار شرر الغضب من عينيه وأخذ يصوب نظراته الحادة المحرقة الى ابن الفرات وهو يتململ فى مكانه ممتقع الوجه منقبض الاسارير ·

ثم التفت المقتدر الى القـــاضى أبى عمر فسأله : ما عندك فى ذلك يا أبا عمر · فقال فى غير روية : لقد أتى ابن الفرات أمرا تخر له الجبال يا للخليفة ــ أيده الله ــ أن ينزل به ما شاء من العقاب ·

فتألق وجه الوزير بالبشر وظن أن المحاكمة ستنتهى على ما يريده

من البطش بصاحبه ، وجعل يرنح عطفه فى نشوة الظافر المنتصر ، ولكنه رأى الخليفة يتجه الى أحمد ابن اسحق فسأله : وما عندك فى ذلك يا أبا جعفر ؟ فيقول القاضى : لا بد من مناقشة الجندى ، فهـــل يأذن الخليفة بذلك ؟ فيجيبه الى طلبه ، ثم تدور هذه الأسئلة بين القاضى والجندى ·

القاضى ــ تدعى أنك رســـــول ابن الفرات الى ابن أبى الساج فى أردبيل فهل رأيت أردبيل ؟

الجندى ــ نعم رأيتها ودخلتها عدة مرات ·

القاضى ــ صف لى أردبيل · أعليها سور أم لا ؟

فسكت الجندى ·

قال القـاضى ــ وما صفة باب الامارة الذى دخلت منه · أحديد ام خشب ؟

فسكت الجندى أيضا ·

فقال القاضى ــ ومن هو كاتب ابن أبى الساج الذى ذهبت اليه ؟ ما اسمه ؟ وما كنيته ؟ وما لقبه ؟

فبهت الجندى ولم يرد بشىء ·

قال القاضى ــ وأين الكتب التى كانت معك من ابن أبى الساج لابن الفرات ··

فقال الجندى ــ متلجلجا مضطربا ــ رميتها فى البحر حين وقعت فى أيدى الجنود فاتجه القاضى الى الخليفة وقال : يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل يقول : يأيهـــــا الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وقد صح عندى أن هذا الجندى جاهل منكســـــب مدسوس على ابن الفرات · فقال على بن عيسى فى حماسة مشتعلة : قد قلت ذلك مرارا للوزير حـــــامد بن العبـــــاس فلم يقبل قولى · وأرى أن يهـــدد هذا الجنـــــدى بالضرب حتى يقر بالواقع الصريح . وامر الخليفة باحضار من يضرب الجندى فى المجلس · فما كاد السوط ينهب جسمه حتى صاح : كذبت وغدرت وضمنت لى الضمانات · والله مارأيت أردبيل ولا حملت كتبا اليها طيلة الحياة · وهنا أمر الخليفة بحبس الجندى وتعذيبه · وكاد يغشى على الوزير المختلق من الهم والانكسار · وانتصر الحق على البـاطل بصراحة القاضى النزيه أبى جعفر أحمد بن اسحق البهلول ·

- ٣ -

كرت الاعوام تلو الاعوام · فتغير الخليفة المقتدر على وزيره حامد ابن العباس فاقاله من منصبه مخفورا . واسند الوزارة الى المتهم السابق أبى الحسن بن الفرات · وتلك الايام نداولها بين الناس ·

ولقد سعى الوزير الجديد ـ لاول عهده بالرياسة ـ الى قتل غريمه السابق فشفى لواعج صدره ، واستراح من ناحيته · ثم دار بذهنه فيمن حوله من المقربين لدى الخليفة ، فرأى أن الوزير الاسبق على بن عيسى لا يزال ممتعا بالحياة · وقد يتم صفاؤه مع الخليفة فى وقت من الاوقات فيعيده الى الحكم راميا بأبى الحسن الى غياهب السجن · ومن ثم أخذ الوزير يدبر لعلى المكيدة التى ترديه مع انه كان من أنصاره المتحمسين يوم حوكم فى التهمة الخطيرة · ولكن يالضيعة الوفاء ·

رأى ابن الفرات ـ لانحطاط نفسه ـ أن يقتدى بسلفه السابق فى الاختلاق والوقيعة · فاتجه الى الخليفة المقتدر وأفهمه أن على بن عيسى على اتصال بالقرامطة أعداء الدولة ، وقد أرسل لهم فى مدة وزارته بعض المواد الحربية التى يحظر ارسالها الى العدو ، كما انه لا يعترف بتكفيرهم وخروجهم عن مبادىء الدين الاسلامى ·

اهتم الخليفة بالوقيعة وأصدر أمره بمحاكمة على ، على أن يسمع بأذنه ما يدور فى المحاكمة من وراء حجاب . وقد تم الامر فى أسرع من البرق وشكلت لجنة المحاكمة برياسة الوزير · وحضر القاضيان السابقان فى المحكمة للمحاكمة الاولى : أبو عمر محمد بن يوسف وأبو جعفر أحمد ابن اسحق البهلول ·

افتتح الرئيس الجلسة ، وسيق على بن عيسى الى المحاكمة وبدأ الوزير فأسرع باحضار رجل يدعى (ابن فليحة) · وأذن له فى الكلام فقال :

لقد أرسلنى على بن عيسى الى القرامطة مبتدئا ، فكاتبوه يلتمسون منه المساحى والطلق وعدة حوائج فأنفذها اليهم · ومعى خطابه الذى بعث به فى هذا الشأن ، ثم قرأ الخطاب فوجد خاليا من تكفيرهم وسبهم كما ينبغى أن يكون فى نظر ابن الفرات · وشاء الرئيس أن يلخص الاتهام فى نقط مركزة محدودة ، فصاح فى وجه على . والمقتدر يسمع من وراء حجاب :

تقول ان القرامطة مسلمون والاجماع قد وقع على كفرهم!! فهم أهل ردة لا يصومون ولا يصلون · وتبعث لهم بالادوات الحربية وهم أعداء الخلافة ومبعث الفساد والشقاق !

قال علي : اردت بذلك المصلحة واعادتهم الى الطاعة ، دون ان تراق الدماء .

قال الرئيس : ويحك لقد أقررت بما لو اقر به امام لما وسع الناس طاعته . فكيف يجوز لك التعاون مع أهل الفساد ؟ ثم التفت الى القاضي أبي عمر فقال له : ماعندك في أمر علي ؟ فافحم ولم ينطق بحرف . فاتجه الى أبي جعفر وسأله : ما عندك يا أحمد بن اسحق ؟.

قال أحمد : لقد صح عندي ان عليا افتدى بكتابه الى القرامطة ثلاثة آلاف رجل من المسلمين كانوا مستعبدين فرجعوا الى أوطانهم أحرارا . فاذا فعل انسان ذلك على سبيل المغالطة للعدو ، فلا لوم عليه بل يستحق أطيب الثناء .

تجهم وجه ابن الفرات ، وسأل القاضي : ما تقول فيما أقر به علي من اسلام القرامطة وهم أهل طغيان ؟

قال القاضي : انهم كاتبوه بحمد الله والصلاة على رسوله فلم يصح عنده كفرهم . فهم لا ينازعون في الاسلام ، ولكن ينازعون في الامامة فقط ومن نازع فيها فهو غير كافر عند الأئمة الاعلام .

دهش الوزير من الرد المفحم . ثم استأنف أسئلته فقال :

ـ وما رأيك في الأدوات الحربية التي أرسلها الى الأعداء . أكان ينوي بذلك تقويتهم على الشغب والفساد ؟!

ـ هو لم يعترف بذلك فلا نؤاخذه به .

كيف تصدقه مع أن رسوله وثقته ابن فليحة قد أرسل لهم المعدات ؟

ـ اذا قال رسوله ذلك فهو مدع وعليه البينة !

ـ كيف يكون مدعيا وهو ثقته الذي استأمنه على حمل الكتب والرسائل ؟

ـ ان عليا قد استوثق به في حمل الكتب . فلا يقبل قوله في الادوات الحربية بحال من الاحوال .

ـ أأنت وكيله حتى تحتج عنه ام أنت حاكم وقاض ؟

ـ لست وكيله . ولكني أقول الحق كما قلته فيك يوم اراد حامد ابن عباس أن يتهمك أمام الخليفة بما هو أعظم من هذه التهمة ، فهل كنت وكيلك حين ذاك ؟ بهت الوزير وانكسر انكسارا طأطأ رأسه الى الغبراء وانتصر الحق مرة ثانية على يد أحمد بن اسحق .

وبعد فقد كان الورع والصلاح ديدن قضاة السلف الصالح فى صدر الاسلام فكانوا يتحرزون ويدققون مقدرين عظم المسئولية وفداحةالتبعة ومهما قارنت هؤلاء الاتقياء بأعلام القضاء الحديث فى الشرق والغرب ، فهم الراجحون الفائزون ، حيث كانوا يبتغون وجه الله وحده ، فأنزلهم منازل الصالحين وفازوا بأعظم الدرجات .

محمد بن بشير يرفض شهادة الحاكم

تعرض الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل لاول عهده بالاندلس لمحنة قاسية كادت تقضي على ملكه، لولا ثباته الجريء، فقد سار مع البطش الى نهايته حتى فمع الفتنة وقضى على الثائرين . ومجمل ما كان من حديثه أن والده الراحل هشام بن عبد الرحمن كان في أثناء حكمه ذا ورع وزهد فاستدنى الفقهاء وجعلهم أرباب مشورته ، وأداة تنفيذه . وصار لهؤلاء من الرياسة والأبهة ما جعلهم وزراء الدولة وحجابها وقضاتها . حتى كان لا يقضي أمرا ما دون استشارة فقيه . ولكن نشأة الحكم ومنحاه يختلفان اختلافا واضحا عن أبيه . اذ أولع منذ نشأته بكتب الفلسفة والمنطق والادب . وأخذ يقرأ تواريخ الامم قراءة الدارس المحلل ، ويجمع من الكتب شرقا وغربا وعربيا وأعجميا ما ضاقت به الخزائن الملكية على سعتها الحافلة . وحين أفضى الامر اليه من بعد أبيه ، لم يشأ أن يسير سيرته مع الفقهاء ، ورأى أن يقف بهم في حدود المناصب الدينية من قضاء وامامة وتدريس . ونظر القوم فاذا سلطانهم يتضاءل وينكمش . واذا الحاكم الجديد يستمع الى الادباء والشعراء وقادة الحرب أكثر مما يستمع الى أصحاب الفقه والتشريع فأعلنوا الحرب الباردة عليه بادىء ذي بدء فأوحوا الى العامة بأنه ملحد يدرس كتب الزندقة والزيغ ، وفاسق يصحب الخلعاء ، والمتهتكين ، ويدمن على الشراب والعربدة ، وانهالت القوارص المحرجة على الرجل فلم تترك في أديمه موضعا خاليا من تمزيق، ثم تحولت الحرب الباردة الى حرب ساخنة حين جمع الفقهاء جموعهم ، مع من كانوا أولياء نعمتهم من القادة والولاة ، وأعلنوا الثورة على الحكم وحاصروه ورموه بالكفر والمروق ، فاضطر اضطرارا الى البطش ، وأورثه هذا الموقف العدائي غلظة وجفاء ، فأمعن في التنكيل وانقلب الى طاغية سفاك حتى استقام له الأمر وسلس القياد .

ومع ما اشتهر به من القسوة المرهبة ، فقد وجد من علماء عصره من يتصدى له بالحق رغبة في تنفيذ العدالة ، لا بالباطل شهوة في تقليد الرياسة وامتلاك السلطان . وهو العالم الحر النزيه والقاضي الكبير محمد ابن بشير القرطبي امام المسجد الجامع وقاضي الجماعة الغيور .

نشأ ابن بشير نشأة علمية كريمة فطاف ببلاد الاسلام شرقا ومغربا

حتى وصل الى المدينة وتلقى العلم مشافهة على امام دار الهجرة مالك بن انس ، ثم عرج فى طريقه على مصر فساجل فقهاءها وعقد أواصر الصداقة بين قضاتها الأعلام ٠٠ وقد نفعه ذلك فى منصبه القضائى بالأندلس . فكان يكتب اليهم بمصر مستفتيا فيما يشكل عليه من الأحكام ، فيجيئه الرد مشفوعا ببرهانه الثابت من السنة والكتاب ٠ وفى هذا ما يكشف عن نفسية ابن بشير ، اذ لو شاء لكان أمره القضائى بالاندلس حاسما لا معقب عليه ، ولكنه تحرز العالم وتواضع الكبير ٠

كان ابن بشير فى قضائه مجددا ينظر الى الاشياء نظرات عميقة ذات بعد ونفاذ ، وقد أحدث من الأوضاع لعهده ماعد به سابقا غير لاحق ، اذ كان أول من جعل المسجد بمنأى عن مهاترة الخصوم فى مجالس القضاء ، واختصه بالعبادة والصلاة حين أمر بانتقال محكمته من المسجد الجامع الى سقيفة تتصل به دون ان يسمع المصلى بعض ما يدور بها من حجاج ولجاج . وقد نظم مسائل الدعوى والشهادة فى القضاء تنظيما مريحا ، اذ جعل لكل يوم جلستين : جلسة صباحية تسمع فيها الدعوى وتسجل فى أوراق وجلسة بعد الظهيرة يجتمع بها الشهود ويناقشون على انفراد كيلا يعرفهم الجانى ، الا اذا دفعت الحاجة الى المواجهة والاعلان . ومهما يكن من شىء فقد كان للعالم الكبير رأيه المفكر واستقلاله الكبير ٠

وقد اصطدم فى أول قضية عرضت عليه بالحكم أمير الاندلس ٠ اذ أصدر أمره بادانته فى مسألة هامة ، وتوقع الناس أن يصدر الأمر بعزله ، وبخاصة وهم يعرفون نفسية الحكم وغورها من القضاء والفقهاء بعد أن ألبوا عليه الجميع وبذلوا جهدهم البالغ فى التجريح والتشهير . وكان القاضى جريئا حازما فى موقفه ، فجعل رضا الله نصب عينيه دون اكتراث بغضب انسان ، وكان الله عز وجل قد كافأه على نيته ، اذ ألهم الأمير الحكم أن يخضع ويستكين فتقبل الادانة بصدر رحب ونزل على رأى القاضى ، فرفع المظلمة عن المجنى عليه ، وقال لجلسائه وقد أخذوا يتملقونه اذ يتحرشون بابن بشير « لا يا قوم : لقد أحسن ابن بشير بنا فيما فعل على كره منا ، كان فى يدنا شىء فصححه لنا . وصار حلالا طيبا لملك فى أعقابنا » (١) وبديهى أن الذى يتصدى للامير الحاكم،ويحكم عليه بالادانة يسهل عليه أن يتصدى لمن دونه من الوزراء والحجاب والولاة ٠ فكان يصدر أحكامه الكثيرة بادانتهم ، فتمتلىء صدورهم حفيظة وغيظا دون أن يجدوا متنفسا لما يستشعرون ٠ وقد حكم ذات مرة فى قضية هامة على الوزير ابن فطيس ، ولم يعرفه بالشهود ، فاغتاظ الوزير غيظا ناقما

---

(١) المدارك للقاضى عياض «مخطوط» ٠

وشكاه الى الحكم وجعل يستعديه عليه فاضطر الحكم أن يكتب الى القاضى فيقول :

« ان الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرفه بهم ولا أعذرت اليه فيهم وأهل العلم يقولون ان ذلك له » ·

وخطاب الحكم ـ على ايجازه ـ غاية الغايات فى الأدب واللياقة فهو يعترض على اخفاء الشهود عن الوزير . ولا يقول ان له ذلك الحق بل يسند القول الى أهل العلم وحدهم لا اليه ·· ولن تجد ذوقا كهذا الذوق من رئيس كبير !!

وقد جاء رد ابن بشير على رسالة الحكم مقنعا مريحا فهو يجزم بأن ابن فطيس اذا عرف خصومه فى الشهادة لم يتحرج عن طلب أذاهم فى انفسهم وأموالهم واذ ذاك لايجرؤ أحد على الشهادة ضده وتضيع حقوق الناس ·

هذا الفهم النفسى لمكايد الوزراء ودخائلهم يوقفك على الرصيد الضخم من البصيرة والاستشفاف لدى القاضى الكبير .. ويعلمك انه ليس فقيها فقط ، ولكنه باحث متعمق يستكنه السرائر ، ويضع لكل حالة علاجها المصيب · وقد رد شهادة الأمير الحكم نفسه فى قضية هامة ولم يخش لومة لائم من انسان · وان قاضيا يجابه السلطان هذه المجابهة الخطيرة لقوى أمين ··

أما كيف تمت هذه المجابهة المحرجة ! فاليك موجزها الدقيق نقلا عن كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام ·

« كان للحكم عم يسمى سعيد الخير ، وكان له فى دولته مقام كبير، فوكل عند قاضى الجماعة ابن بشير وكيلا يخاصم عنه بشىء اضطره اليه، وكانت بيده وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا . ولم يكن فيهما من الأحياء الا ابن أخيه الحكم ، وشاهد آخر مبرز · فشهد ذلك الشاهد لسعيد الخير ، وضربت على وكيله الآجال ليأتى بشاهد ثان ، فلما جد به الخصام دخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم . وأراد شهادته فى الوثيقة، وقد كتبها فى حياة أبيه قبل أن يقوم بأمر الاندلس ، فعرفه مكان حاجته الى شهادته عند قاضيه خوفا من بطلان حقه · وكان الحكم يعظم عمه سعيد الخير · ويلتزم مبرته ·

ولكنه خاف من ابن بشير أن يرد شهادته ، فيكون لذلك أثر غير محمود فى ملكه فقال له : يا عم ·· انا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ، ونخشى أن توقفنا مع القاضى موقف

محزاة كنا نفديه بملكنا ، فسر فى خصامك حيث صيرك الحق اليه،وعلينا خلف ما انتقصك ·

فأبى سعيد الخير ذلك من الحكم . وقال له : سبحان الله·ما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك ؟ وأنت وليته . وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمتك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته . ولا تكتمنى ما أخذ الله عليك ·

فقال له الحكم : بلى ان ذلك لمن حقك . كما تقول ، ولكنك تدخل علينا به داخلة ، فان أعفيتنا منه فهو أحب الينا ، وان اضطررتنا لم يمكننا عقوقك ·

فعزم سعيد الخير على الحكم فى أداء شهادته . والح عليه فيها الحاحا شديدا ، فأرسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته فى قرطاس بيده ، وختم عليها بخاتمه ، ودفعها الى الفقيهين، وقال لهما : هذه شهادتى بخطى تحت ختمى ، فأدياها الى القاضى ·

فذهب الفقيهان بهذه الشهادة الى ابن بشير ، فدخلا عليه بها فى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود ، فأدياها اليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما ، فقوما راشدين فى حفظ الله تعالى ·

ثم جاء وكيل سعيد الخير بعد انصرافهما ، وتقدم الى ابن بشير مدلا واثقا ، لانه أتى اليه بشهادة ملك البلاد ، فقال له : أيها القاضى ، قد شهد عندك الامير أصلحه الله تعالى ، فما تقول ؟

فأخذ ابن بشير كتاب الشهادة ونظر فيه . ثم قال للوكيل :هذه شهادة لا تقبل عندى ، فجئنى بشاهد عدل ·

فدهش الوكيل عند سماع ذلك من القاضى ، ومضى الى سعيد الخير فأعلمه بما قال ، فركب سعيد الخير من فوره الى الحكم وقال له : ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا ، يجترىء هذا القاضى على رد شهادتك !! والله سبحانه قد استخلفك على عباده . وجعل الامر فى دمائهم واموالهم اليك، وهذا ما يجب أن تحمله عليه ·

وجعل سعيد الخير يغرى الحكم بالقاضى ويحرضه على الايقاع به . فقال الحكم له : وهل شككت أنا فى هذا ياعم ؟ القاضى رجل صالح، والله لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه ، وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى جزاءه ·

ولما سمع سعيد الخير ذلك من الحكم غضب وقال له : هذا حسبى منك · فقال الحكم له : نعم قد قضيت الذى كان لك على ، ولست والله

أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه . ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله ·

وقد عوتب ابن بشير من بعض أصدقائه فيما أتاه من ذلك ، فقال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم أنه لابد من الاعذار في الشهادات ، فمن كان يجترىء على الدفع في شهادة الامير لو قبلتها ؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه ·

ولن تحتاج صرامة ابن بشير وجرأته الى تعليق · فقد رفض شهادة رئيس الدولة ، وولى الأمر متحرجا متحرزا ، وكان في وسعه أن يقبلها ـ كما يرى ذلك كثير من العلماء ، ولكنه ينظر الى الحد الأبعد حين يحجم المعترض عن دفع الشهادة هيبة وخشية ، فليحجم هو عن قبولها ، ليتحمل التبعة ويواجه السلطان · هـذه هي البطولة ، ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم (١) ·

---

(١) ملحوظة . ذكر الاستاذ الجليل عبد السلام الصعيدي في كتاب القضايا الكبرى في الاسلام أن حادثة محمد بن بشير كانت مع الحكم بن عبد الرحمن الناصر وذلك سهو واضح لان ابن بشير عاش في القرن الثاني من الهجرة أيام الحكم ابن هشام أما الحكم الثاني فقد كان في القرن الرابع فكيف يجتمعان ! .

المنذر بن سعيد يتحدى الناصر

يتألق اسم المنذر بن سعيد البلوطي بين الخطباء والقضاة الذين يتحدث التاريخ عن مواقفهم المشهودة . فقد كان الى فصاحة لسانه وسمو أدبه ودقة مؤلفاته ، ورقة أشعاره ، جريئا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، عادلا في الحكم فلا يجنح الى هوى . أو تميل به عاطفة ، زاهدا عزوفا عن المظاهر الخادعة هذا الى حسن السمعة وبعد الصيت .

وقد نشأ القاضي الخطيب بالاندلس ، وتتلمذ على جهابذتها من الفقهاء والادباء . ثم أخذ السير الى بلاد المشرق فلقي كثيرا من العلماء والرواة ونسخ أوراقا كثيرة مما قرأ وسمع . ورجع الى الاندلس حاملا من كل فن ثمارا طيبة مشتهاة ، فعرف له العلماء مكانه من الفقه والدين وأنزله الادباء بينهم منزلة عالية ، لما له من ذوق جيد في الفهم ونقد بصير بالشعر . ورواية حافلة للادب والتاريخ . وكانت الاندلس لعهد المنذر تزدان بسلطان عبد الرحمن الناصر ، وكان ملكا جريئا مقداما جمع الكلمة المتفرقة . وأسكن الفتن الثائرة ، وهاجم الصليبية الزاحفة ونشر ألوية الحضارة والمساواة ، فتجمعت حوله القلوب ، وخافه أعداؤه ومعاصروه من الملوك ، فخفوا اليه بالهدايا النادرة يخطبون وده . ويتملقون عطفه ، وقد جعل قرطبة عاصمة ملكه ، نظيرة بغداد وقريعتها علما وثقافة وحضارة ، فشاد بها القصور ، وأقام الجسور ، وأكثر من الحدائق والرياض حتى أخذت زينتها ، وارتدت أبهج الحلل والمطارف ، وتحدث الناس بجمالها الباهر وسحرها العجيب ، وقد بنى الزهراء وتأنق في تجميلها تأنقا بارعا فحشد لها المهندسين ذوي الكفاية ، ورفع القباب العالية . وأجرى الجداول الصافية ، وخلع عليها ألوانا عاطرة ناضرة تنبيء عن عظمة الملك وجلال السلطان .

وقد رجع المنذر الى الاندلس في عهد الناصر ، ومهد له الحظ طريق السعادة فتألق نجمه في مناسبة شهيرة . اذ أن رسول ملك الروم قد حف لزيارة الخليفة حاملا أنفس الهدايا والتحف ، فأقيم لاستقباله احتفال فخم في يوم مجموع له الناس ، وحضر الفقهاء والامراء وأعيان الدولة في أجمل مظهر ، وأفخم لباس ثم تقدم الاديب الراوية الكبير ، أبو علي القالي ، ليلقي كلمة الافتتاح فبهره الموقف وأخذته الرهبة ، وغشيت الناس سحابة من الخجل والاستحياء حين تلجلج لسانه وتقطعت كلماته ،

واحمر وجهه . واذ ذاك نهض المنذر بن سعيد فصعد الى المنبر ووصل الكلام بحديث جيد ، فأبرز أفضال الناصر وتحدث عن مآثره ، وقرر افعاله ، وعدد نعم الله على المسلمين ، وتوعد أعداءهم بما أورث الرهبة والخشية في القلوب . فاتجهت الانظار الى الخطيب الساحر ، وعظمت مكانته في عين الناصر فأسند اليه الخطابة في المسجد الجامع ، ثم عينه قاضي الجماعة في قرطبة ، فأبرز في الاولى بلاغة وتأثيرا ، وأرسل من المواعظ البليغة ما رقق الافئدة ، وأقض المضاجع ، كما كان في الثانية علما من أعلام الحق الذين ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف وله في ذلك مواقف ناصعة تتعطر بها كتب التاريخ ، وتزدان بها مجالس القضاء في الاسلام .

أجل ، كان المنذر مثال النزاهة في القضاء وله مع الناصر غرائب رائعة فقد ألزمه الحق مرات عدة ، وهو من هو في سلطانه ودكتاتوريته ، فقد كان الملوك جميعا لعهده ، شرقيين وغربيين منفردين بأحكامهم،لا معقب وراءهم ولا نقض لما يبرمون ، ومع ما لهم من السطوة العارمة ، والبطش القاهر ، فقد وقف المنذر أمام الناصر ليؤيد الحق وحده ، ويتخذ خشية الله سلاحا يفل دونه كل سلاح ، مهما رجعت عليه العواقب بما ينتظر أن تتمخض عنه ، وكان الناصر دقيق النظر صحيح البصر برجاله ، فهو يعلم المداهن المحابي ، والمتظاهر بالحق سمعة ورياء ، والمعتصم بالحق ابتغاء مرضاة ربه ، ومن ثم فقد كان ينزل على حكم المنذر ، واثقا من نزاهته وخلوص حكمه من الشوائب . واذا كان لنا أن نفخر بمن يجاهرون بالحق من القضاة دون رهبة أو خشية فاننا نعجب أيضا بمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه من الخلفاء والملوك !

كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه ، فهام بها ، وكلف برغباتها ، فبنى لها قصرا جميلا ، ثم عن له أن يتوسع في شرفاته ومقاصيره ، فأراد أن يشترى دارا مجاورة لبعض الايتام ، وعرض بعض المال لذلك ، فقال الوصي : انه لا ينفذ البيع الا باذن القاضي منذر بن سعيد ، اذ أن الأيتام في حجره ورعايته ، فهو قاضي الجماعة في المسلمين ، وأولى بالتصرف والانفاذ ، فبعث الخليفة الى القاضي يسأله انفاذ البيع، فقال البلوطي لرسول الخليفة : ان البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه منها : الحاجة الملحة ، أو الضعف الشديد ، أو الرغبة في مال من غبطة مرتجاة . وليس بالأيتام حاجة لنقد ، ولا بالدار ضعف فتزال ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فان أعطاهم أمير المؤمنين كثيرا ، أنفذت البيع والا فلا . وطار الرسول بالخبر الى الخليفة ، فظهر زهدا في شرائها ، وخاف القاضي أن يصمم الخليفة على الشراء ، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة في الشراء . فعز ذلك على الناصر،

واستدعى القاضي وناقشه في هدم المنزل ، فقال له المنذر في جرأة حميدة. لقد أخذت في هدمها بقول الله عز وجل :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، ومقومك لم يقدرها بمال معقول وقد قبضت في الانقاض وحدها أكثر منه ، وبقيت الارض للايتام. فتدبر الخليفة الأمر قليلا وأدرك صدق النية لدى القاضي ، وعلم اخلاصه في اتباع الحق فقال له : نحن أولى بالانقياد الى العدالة ، وجزاك الله خيرا يا قاضي الجماعة عن العدل والاسلام .

موقف كريم من قاض عادل ، وملك منصف . وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز الاسلام وبلغ في قرن واحد ما لم تبلغه الدولة الرومانية في ثمانية قرون ، بل ان المنذر العظيم قد رصد نفسه ناقدا لاعمال الخليفة ، فهو لا يكتفي باقامة العدل في القضاء وحده ، بل يتتبع أعمال الناصر حسنها وسيئها في رأيه ، فاذا لم يطمئن لعمل ما جاهر بمحاربته على رءوس الاشهاد ، واتخذ من منبر الجمعة مذياعا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر . مهما كانت النتائج ، وحسبه أن يسكن ضميره القلق ، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والاغضاء . وقد كان الناصر كلفا بالعمارة والزخرفة . فبنى الزهراء وأفرغ الجهد في تزيينها وابداعها . وأقام قصورها الشماء على أحسن طراز ، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة في المسجد الجامع ثلاث مرات متعاقبات فأراد القاضي أن يلقى الموعظة الزاجرة وانتهز حضور الخليفة للصلاة في جمعة حافلة وبدأ خطبته بقول الله « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم أتبع ذلك بكلام قاس ، ينهى عن الاسراف والتبذير حتى بكى الخليفة وندم ثم قال لولي عهده ونجله الحكم لقد أسرف المنذر في ترويعي وازعاجي ، والله لا أصلي خلفه الجمعة أبدا . فقال له ولي العهد : وما الذي يمنعك من عزله وايقافه . فرجع الناصر الى ايمانه ويقينه وقال : ويلك أمثل ابن سعيد في ورعه وعلمه وفضله ، يعزل في ارضاء نفس ناكبة عن الرشاد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ، واني لأستحي من الله عز وجل ألا أجعل بيني وبينه شفيعا يوم القيامة مثل المنذر بن سعيد . هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر .

وقد زاده في عيون المنصفين قدرا ونباهة ، ولو استمع الى ولي عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرما آخر ، وسلقه الناس بألسنة حداد ، فذاع في الدولة اسرافه وتماديه ،

فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر ·· ولكنه تلافى ذلك كله ، وأرضى الله عز وجل فى واعظه ومرشده ، ثم تقبل النصيحة بهدوء واذعان ، بعد أن سكنت عنه سورة الغضب وكان يذكرها للمنذر بمحمدة واعجاب ·

على ان الناصر كان يزن رجال دولته ويضع كلا فى منزله اللائق فهو يعرف الفقهاء ومنازعهم ، ويلم بنفسياتهم المتباينة حتى ليكاد ينطق بما فى ضمائرهم من حب وكراهية ، وقد بنى قصرا فخما ، وصفحه بالذهب والفضة ، وزخرف سقوفه بالالوان الذهبية البراقة . ثم دعا اليه كبار رجاله وسألهم عنه فبالغوا فى الثناء على ابداعه وكماله ، وأسهبوا ما شاء لهم الملق فى تعداد مفاتنه ومباهجه . فسر بتقريظهم سرورا طائرا ثم دخل المنذر بن سعيد واجما ساكنا ودموعه تنحدر على لحيته ، فسأله الخليفة عن حزنه فى غير وقت الحزن ، فأشار الى السقف الذهبى الوضىء وقال: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ بك هذا المبلغ ، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى نزلت منازل الكافرين ·

فانزعج الناصر وصاح : انظر ماذا تقول ! ويلك ! فقال المنذر : الا تتذكر قول الله عز وجل « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » فوجم الخليفة ونكس راسه معتبرا ثم قال : جزاك الله خيرا من ناصح أمين

ونهض الى الزخرف الذهبى فازاله لساعته ، ثم أمر بطلاء القبة طلاء عاديا ، لا رونق به ولا تنميق !

بهذه المواقف الخالدة للمنذر بن سعيد تعطر تاريخه بالثناء والمديح ، ولقى فى حياته من الاكبار والاجلال ما لقيه بعد مماته من التعظيم والاطراء · ولا ريب فقد كان مثلا رفيعا لعالم الاسلام فقها وفصاحة ونزاهة وورعا ، وقد ائتم به قضاة الدولة وفقهاؤها فدرسوا أحكامه وحفظوا خطبه ، اما العامة من الرعية فقد بهرهم ذياده عن الحق ، ووقوفه بالمرصاد لكبراء الدولة وأمرائها فتجمعوا حوله ولاذوا به فى الشدائد · وقد امتنع المطر مدة طويلة حتى جفت الانهار ، وغاضت الينابيع فتزاحم الملأ على القاضى مستجيرين ، وخرج بهم الى العراء فخطبهم خطبة مؤثرة ، ووعظهم وعظا خاشعا وبكى فأبكى الحاضرين . ثم أذن الله فتجمعت السحب ، وانهمر الغيث انهمارا شديدا على الآكام ومنابت العشب ، ومسايل الاودية ، ورجع الى منزله قرير العين مبتهج الخاطر ، اذ أجاب الله دعوته ، وغمر البلاد بفيض زاخر ، تتقاذفه الانهار فأخصب جديبا ، وأحيا مواتا ، وأنقذ الأرواح ·

وكان المنذر الى ذلك كله حاضر البديهة جيد النادرة ، ينظم الشعر الرقيق فى دقائق اللغة وضروبها من بلاغة وتصريف ، وقد أفادته رحلته الى الشرق معرفة بالناس ودراية بشئون البلدان ، ومشافهة للأئمة ، ومناظرة للعلماء ، فنضج عقله وسلس بيانه ، وتحرر من ربقة الجمود ، فكان لا يتقيد فى الافتاء بمذهب مالك بن أنس ، بل قارن ووازن وحلل وعلل ، واكتسب سمعة فقهية رشحته للامامة والافتاء ، وانك لتقرأ ما روى من خطبه وأشعاره فى معجم الأدباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقريزى ومطمح الأنفس للفتح ، فتجد المعنى الرائع ، والاسلوب البليغ ، والذوق البصير ، وكل ذلك كثير .

العز بن عبد السلام سلطان العلماء

أجمع فقهاء عصره على أنه سلطان العلماء ، فقد كان الشيخ من العلوم على اختلاف فروعها واتساع جوانبها بمنزلة رفيعة ، فقد كتب المؤلفات الكثيرة فى الفقه والاصول والتوحيد والتفسير والحديث والبلاغة، كما شارك فى التصوف مشاركة علمية وعملية ، فزهد وتنسك وكتب فى المواجد والمقامات ، والحق أن العز لم يكن سلطان العلماء وحدهم . فقد كان سلطان الدولة بمن فيها من ملوك وأمراء !!

حتى أنه عرف بانه القائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمانه ، وكانت جرأته فى الحق مثار الدهشة والعجب . فقد صمد لكثير من الطغاة معتزا بحقه ، ولم يمنعه فى ذلك ارهاب وتهديد وقد ألقى به فى غياهب السجن فما ازداد الا ثقة ومهابة ، بل ان ما كابده من المحن قد أورثه صلابة وجرأة فاستعذب مرارة الألم فى سبيل الله ، وظل على مبدئه يكافح الظلمة من الملوك والرؤساء حتى خشع الجميع لارادته وأصبح سيد الدولة فى مصر وسلطان الناس .

وقد نشأ هذاالفقيه بدمشق ، فدرس العلم على أئمتها الثقاة ، مثل فخر الدين بن عساكر ، وجمال الدين الخراسانى ، وسيف الدين الآمدى ، ثم ارتحل الى بغداد فشافه علماءها ، وجالس فقهاءها وعاد الى بلدته جم المعرفة واسع الدراية ، فانتشر له دوى علمى ، وبرع فى الفقه براعة فائقة حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ، بشهادة الائمة من معاصريه ، وعزل كثير من الفقهاء انفسهم عن الفتوى ـ كالحافظ المنذرى ـ مكتفين بما يصدر عنه من أحكام .

وقد ولى الخطابة فى دمشق . فاتخذ من منبرها مذياعا يشن به الحرب على الباطل ويدحض البدع والخرافات ، ويواجه الطغيان من الرؤساء مواجهة تزلزل العروش ، وتقوض الدعائم ! حتى خيف جانبه ، وعظمت رهبته ، وان الذى يبحث مواقف الشيخ ليعجب بقوة الايمان الخارقة التى سيطرت عليه ، فخلقت منه أسدا غضوبا يفر أمامه الحكام كالقطيع ! فما يزأر العز على منبره حتى يرتجف الباطل ، ويتزعزع الضلال ، وتقوم الحرب العارمة بين الحق وخصومه ، ويخرج الشيخ من الحومة مؤزر النصر ، عالى الرأس ، وهانذا الم ببعض مواقفه الناصعة

مراعيا ترتيبها الزمني ما امكن ليكون بها عظة بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع !

كان الملك الاشرف موسى بن العادل سلطان دمشق ، وله بها من النفوذ والسيطرة ما للملوك والرؤساء . وكان للعز عنده منزلة رفيعة فهو يقدر ايمانه القوى ، ويشهد مواقفه الغر من أصحاب البدع والخرافات ، ولكن جماعة من مبتدعة الحنابلة قد أصدروا بدمشق فتنة فارغة فذهبوا يقولون : ان كلام الله بحروف وأصوات .

واندفعوا في لجاجة حشوية لا طائل تحتها ، وتحزب العامة فريقين بازائهم . وقد أفلحوا في اقنـــاع السلطان الاشرف بآرائهم فاكتسبوا بمؤازرته قوة أثارت الشغب والتهريج ، في وقت تتجمـــع به جيوش التتار لمحاربة المسلمين بدمشق ، فشـــار العز على هؤلاء المبتدعين ثورة عارمة ، ونددبهم فوق منبره تنديدا ماحقا . كما أصدر فتوى يقرر فيها مذهب السلف والجماعة فيما أثاروه من الضجيج ! وقد أفلح هؤلاء في اغضاب السلطان عليه ، فقامت بينه وبين الشيخ مناقشات ومساجلات حادة ، لم يسلس فيها العز قيادا أو يلن جانبا ، فصدر الامر بعزله من الخطابة ، وحرمانه من الفتوى ، واعتقاله ببيته . ولكن الحـق قد ظهر أخيرا على يده ، فاعتذر له السلطان ـ وكان في مرضه الاخير ـ فاهتبل العز هذه الفرصة ، واتخذ من اجتماعه بالاشرف مجالا للنصيحة ، والامر بالمعروف وقال للسلطان :

كيف تعد الذخيرة وتجمع الجيوش لمحاربة الملك الكامل سلطان مصر وهو أخوك ، وجنوده مسلمون كجنودك ! فتضيع الدماء الطاهرة في خلاف عائلي لا يرجع على الاســـلام بغير النكبة والخسران ! ان جيوش التتار تخوض بلاد المسلمين وأولى بكما أن تتعاونا على درء الخطر الزاحف فتنالا مثوبة الله واعجاب الجميع ! وما زال الشيخ المخلص بالرجل المريض حتى اقنعه فثنى العزم عن أخيه وأبطل المحـــارم والمناكر ، وكان موقف العز رائعا حين أمر له السلطان بألف دينار فردها قائلا : هذا اجتماع لله ، فلا أكدره بشيء من عرض الحياة !

رجع العز الى منبره يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كعهده ، وقد آلى على نفسه أن يتعقب الفساد في كل مرصد ، فلا يقطع لسانه عن باطل مهما جل ذووه ! وقد نزلت بدمشق نكبة فادحة حين ملكها الصـــالح اسماعيل ودب بينه وبين نجم الدين أيوب خلاف شديد ، فخاف على ملكه فصالح الفرنجة من الصليبيين على أن ينتقذوه من ملك مصر ويسلم اليهم (صيدا) و (الشقيف) وغيرهما من بلاد المسلمين ، ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا دمشق بمقتضى المعاهدة ، وأخذوا يبحثون عن السلاح يشترونه

ويعدون أنفسهم به لمحاربة المسلمين ! فعظم ذلك على العز وافتى بتحريم بيع السلاح ، ونادى بالصالح اسماعيل فى مجالسه ودروسه ، ثم اعتلى المنبر ليعلن تبرمه وسخطه على السلطان الغـــادر دون أن يعبأ بارهاب يتهدده ، وانتشرت ثورة العز بالمدينة فانزعج لها الصالح انزعاجا شديدا ، وأصدر أمرا بعزله وحبسه ! فما زادت الثورة الا استفحالا . فبدا للملك أن يطلقه على أن يغادر دمشق وخرج العز الى كنانة الله وقلوب الشاميين تتبعه ، وقد سار خلفه كثيرون ! وخاف السلطان أن ينتشر حديث خيانته بمصر ، اذ دخلها العز ، فأرسل اليه من يصالحه على العودة الى منصبه على أن يستكين للسلطان ويقبل يده !

وما كاد العز يسمع كلام الرسول حتى صاح به : والله لا اقبل أن يقبل الصالح يدى ! فضلا على تقبيلى يديه ! يا بنى ارجع الى صاحبك فهو فى واد وأنا فى واد .

رحل الرجل العظيم الى مصر ، وقد سبقه اليهـــا مجده وفقهه فاستقبله العلماء بالاجلال ، وكان المحدث العظيم الحافظ المنذرى صاحب الفتيا بها ، فامتنع عنهـــا اجلالا لعلمه . ورأى الشيخ كثيرا من محبه السلطان الصالح أيوب وعنايته به اذ ولاه الخطابة بجامع عمرو والقضاء بمصر والوجه القبـــلى ، والتفت القلوب حول الزائر الجديد ، فارتوت العقول من علمه ، واشرقت القلوب بنوره ، وسار على سننه المعهود يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، واتخذ من منبره بالفسطاط مذياعا جديدا ، يرسل به النذر ويقيم الحجج « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينه » . وطبيعى أن يعظم نفوذ الرجل وقد وثق بربه ، وبذل جهده الجاهد فى مرضاته ، فلم تأخذه رهبة فى محـــاربة بغى ، واستئصال فساد ، وقد مر ذات صباح على صديقه الصالح أيوب فى يوم عيد ، وقد أخذ السلطان زينته ، وخرج على قومه ، والجنود مصطفون بين يديه . والأمراء يقبلون الارض تحت أقدامه ، والرايات تخفـق ، والخيول تصهل ، والدنيا تجتمع لتشهد ! فالتفت الشيخ الى السلطان فى ابهته الأخاذة ، وتيهه المتعاظم ، وصاح به : يا أيوب .. ما حجتك عند الله ، اذا قال لك الم أبوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ فاندهش الملك وقال أهل حصل ذلك ؟ فقال الشيخ : نعم ، حانة فلان وحـــانة فلان ! فقال السلطان : هذا من زمان أبى وماصنعت شيئا ! فقال الشيخ : ما هذا أأنت من الذين يقولون انا وجدنا آباءنا على أمة ! فرسم السلطان أمرا باغلاق الحانات فورا ، ورجع الشيخ الى درسه ، فسأله تلميذه الباجى عن موقفه ، فقال : يابنى لقد رأيته فى تلك العظمة فاردت أن اهينه . لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . ولقد استحضرت هيبة الله تعالى اذ أخاطبه فصار السلطان عندى أقل من القط .

ولو كانت بنفسي لديه حاجة من حاجات الدنيا لرأيته الدنيا كلها ! الله أكبر ... هذا هو العالم الحق الذى لا يعبأ بصداقة شخصية ، أو منفعة ذاتية بل يجعل الاسلام رائده . يبحث عن تعاليمه ، ويتشدد فى أوامره ونواهيه ، فهو خير أمة أخرجت للناس . وقد ورث النبى فى علمه وهديه ومنبره ، وقام على رسالته يصون الارث الثمين ! وقد جاهد العز بسيفه كما جاهد بلسانه ، جاهد بسيفه حين هاجم الصليبيون دمياط ، وأرادوا اكتساح الاسلام فى امنع دوله وأعز حصونه ، فنهض الشعب عن بكرة أبيه ، وأمامه أمراؤه وجنوده وعلماؤه ، وخطب الشيخ خطبة مؤثرة ، أشعلت الحمية فى الصدور ، ودفعت النفوس الى الجهـــاد . ويروى المؤرخون أن الريح قد حاربت السفن المصرية بادىء ذى بدء ، فوقف العز ينادى بأعلى صوته : اللهم حول الريح عن عبـــادك المسلمين .. ويلوح بيده الى ناحية الصليبيين فتغير الوضع ، وانكفأت الريح الى سفن الفرنجة . وسواء أكان ذلك اجابة لدعوة الشـــيخ أم ظاهرة طبيعية لا شىء للكرامة فيها فان موقف العز كان مصدر يمن واقبال ، فتم به النصر وانطلقت الزغاريد .

ولم تكد مصر تستريح من نضال الصليبيين حتى تعرضت لقتال عدو آخر أشد بأسا وأعظم نكالا ، فقد اكتسح التتار بلاد الشام وولوا وجوههم نحو مصر المحروسة ، وقد ذاعت الروائع عن قوتهم الخارقة ووحشيتهم الكاسرة فملأت القلوب بالوجل والخوف ، واستأنف العز جهاده فدعا الى محاربة أعداء الاسلام ، واجتمع العلماء بالامراء والقواد والاعيان ، وأخذوا يتشاورون فيما يصنعون ، فرأى الامراء أن تجمـــع الاموال من الرعية ليستعين بها الجيش فى نضاله الرهيب . ووافق الحاضرون على الاقتراح كأمر مسلم به لا يقبل الاعتراض ولكن صيحة الشيخ تعلو بكلمة الحق . فيقول : لكم أن تفرضوا الضرائب على الرعية كما تريدون اذ لم يبق فى بيت المال شىء ، واذا باع المماليك جواهرهم النفيسة ، وأدواتهم المذهبة ، وذخائرهم الثمينة ولم يبق لهم شىء غير ما للعـــامة فيتساوى الجميع ، وتفرض الضرائب على الرءوس ، وقد أذعن الحضور لأمر الشيخ ثم توجه الجيش المؤمن بقيادة الملك المظفر قطز فكتب للاسلام نصرا خالدا ، بهزيمة التتار ــ لأول مرة ــ فى موقعه عين جالوت .

وقد تنكر الحظ للملك المظفر الظافر ، فاغتاله بعض أعدائه فى اثناء عودته مكللا بتاج الظفر والنجاح ، وأراد الظاهر بيبرس أن يأخذ لنفسه البيعة بعد مؤامرة دبرها ، وكان له من الجبروت والبطش ماأرهب وأفزع ! ولكن العز لم يعبأ به ، فامتنع عن مبايعته ، وقال له فى صراحة عالية جهيرة : باركن الدين ، أنا اعرفك مملوك البندقدارى ولم يثبت لدى عتقك للآن ، فكيف أبايعك ! فاستحضر الظـــاهر شهودا يعترفون

بخروجه عن ملك سيده واسترداد حريته ، فبايعه الشيخ ، وبايع خلفه الجميع ٠

هذه الحادثة العجيبة لها فى تاريخ العز نظير أعجب وأدهش ! فقد ثبت لديه أن الامراء من المماليك لم يعتقوا ، وهم بذلك من حق بيت المال ، فاعلن للعامة أن حكم الرق لا يزال مصاحبا لهم ، وأن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود ونكاح باطلة لا تنعقد ، وقد أفسدت هذه الفتوى الجريئة على الامراء كل عمل يقومون به ، فثارت ثائرتهم ، وكان بينهم نائب السلطنة فهاج وماج ، وتطاير الشرر من عينيه ، وأقسم ليصرعن العز بسيفه فقد تعاظمه أن يكشف الرجل عن حقيقته ! فاذا هو مملوك رقيق ! برغم ما يعوم فيه من سلطان وأبهه ، وكيف والأمراء من المماليك ملوك الارض وأصحاب الجاه الطائل والصيت البعيد !!

سار نائب السلطنة الى بيت الشيخ ممتطيا صهوة جواده ، وفى يده سيفه المسموم ، يبرق به لعاب المنية ، فطرق الباب طرقة شديدة ، وتقدم للعز فنظر اليه نظرة تتطاير منها ما يشتعل بقلبه من الغيظ والحقد ، ثم رفعه على الفقيه الساكن الهادىء فى مكانه كأن الامر لايعنيه ، ولكن اليد الظالمة ترتجف ! والسيف المسموم يسقط الى الارض ، والامير الفارس يتخاذل ويرتعد ! كل ذلك والعز لم يبد حراكا ! أفكانت رهبة الموقف قد زلزلت أعصاب الامير فتعاظمه ما هو مقبل عليه من شر مستطير ، أم أن عناية السماء قد جعلت من قوته ضعفا فانكفأ بعد سقوط سيفه يترضى الرجل ويستعطفه ، ثم ينزل على حكمه ، فيقول : يا سيدى ماذا تصنع بنا ، فيجيب فى ثبات : أنادى عليكم وأبيعكم ، وأقبض الثمن غاليا لأدعه فى بيت المال ! وهذا ما كان فقد صاح المنادى آن ذاك بهذه الكلمة التي سطرت أنفس مواقف العزة : أمراء للبيع أمراء للبيع ! وقد قال له نجله عبد اللطيف : لقد خفت عليك خوفا شديدا من بأس الامير ، فصاح به أبوه : لا تقل ذلك يابنى فأبوك أهون من أن يقتل فى سبيل الله !

على أن الرجل كان صاحب ارادة وتنفيذ ـ فهو ينهى عن المنكر فاذا أبطأ ذوو الامر فى تنفيذ نهيه باشر التنفيذ بنفسه دون تهيب أو اكتراث ، فقد بلغه أن الامير فخر الدين عثمان قد جعل من سطح مسجد بمصر مكانا للزمر والطبل ، فبنى به ما كان يسمى (طبلخانة) فقام العز بنفسه وصحب جماعة من تلاميذه وهدم البناء ! وقد غضب الوزير والأمير لذلك فأسقط عدالتهما وعزل نفسه من القضاء دون أن يرجع للسلطان ٠ ثم لزم داره يفسر ويؤلف حتى استعطفه صاحب الأمر ، فباشر التدريس بالمدرسة الصالحية ٠ وواصل الشرح والتعليم ، وقد أخطأ ذات يوم فى

فتوى فأمر مناديا يطوف بالمدينة ويقول : ما أفتاه العز بكذا فليعلم أنه خاطىء ! فيالعظمة الحق ويالجلال الايمان !!

لقد عاش الشيخ ثلاثة وثمانين عاما كانت كلهـــا بركة ويمنا على الاسلام ، وحين أدركته الوفاة عرض عليه الظاهر – في احتضاره – أن يعين أولاده العلماء في منصبه . فابى وقال : ليس فيهم من يصلح . ثم رشح من زملائه الأئمة من وثق بعلمه ودينه ، ارضاء للعـدالة . وحين خرجت جنازته سارت مصر كلها برجالها ونسائها وأطفالها تشيعه وتبكي عليه ، وقد نظر الظاهر بيبرس الى الجمع المحتشد فقال : الآن قد استقر ملكي ، فلو أن هذا الشيخ أمر الناس بخلعي لبادروا الى امتثال أمره كما يشاء ، ومع ما عرف عن الرجل من قوة وجلال ، فقد كان يصحب الفقراء ويشارك أهل الزهد من المتصوفين ، وقد أورثته صوفيته شفافية حساسة فتعلق بالأدب ، ونظم الشعر ! وما نعهد فقيها كتب في أكثر علـوم الشريعة في عصره غيره وقد مدحه الحافظ المنذري ، وابن الحاجب ، وابن دقيق العيد ، والشاذلي وغيرهم من علماء زمانه بما فاق الوصف وأربى على البيان .

وكنا نعهد الفقهاء لا يخوضون في أبحاث الأدب ولكن العز قد الف في البلاغة والمجاز فكان يحلل الأبيات ويتحدث عن مناسباتها وقائليها ، غير مقتصر على القواعد الفنية للبلاغة كعـلم ذي تعاريف ومحترزات .. وقد جاءه رجل فقص عليه أنه رآه ينشد في المنام قول كثير عزة :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فسكت العز ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة فان هذا الشعر لكثير ، وقد نظرت فلم أجد مناسبة بيني وبينـه ، فأنا سني وهو شيعي ، وأنا طويل وهو قصير ، وأنا سلمي وهو خزاعي ، وأنا شامي وهو حجازي ، وهو شاعر وأنا فقيه ، فلم يبق الا السن فأنا اعيش كما عاش وقد كان الأمر كذلك ! .

وهذه القصة على صغرها تؤكد المـام الرجل بتواريخ الأدباء ، كما تكشف عن مدى تعلق فقهاء الاسلام بتعبير الرؤيا من لدن ابن سيرين وسعيد بن المسيب الى أقرب عهودنا بمشايخ الأزهر في القرن التاسع عشر ! وما في ذلك شيء فهم يقتدون بنبي الله يوسف الصديق .

وبعد فقد كنا نقرأ قول القائل عن العلماء .

كانوا أجل من الملوك جلالة وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

فنظن ذلك مبالغة شعرية ولكننا نقرأ سيرة العز بن عبد السلام فنجده حقا أجل من الملوك ، وفي مواقفه السابقة أكبر برهان وآكد دليل .

محيى الدين النووى
يتحدى الظاهر بيبرس

ان مصباح الهداية الاسلامية ليتنقل من جيل الى جيل دون أن ينطفىء نوره على مدى الحياة ، فلم يكد العز بن عبد السلام ينتقل الى جوار ربه حتى نهج نهجه فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عالم من طرازه يشاركه الفهم الصائب والعزة العالية ، والمجابهة الصريحة السافرة للطغيان ذلكم هو الامام الفقيه الورع محيى الدين النووى .

لقد عاش الرجل ردحا من حياته فى عصر الظاهر بيبرس ، والظاهر كما نعلم بطل جرىء من ابطال التاريخ أسدى للعروبة والاسلام أيادى رائعة حين كافح الاستعمار الصليبى فى مواقع فاصلة . فقاد الجيوش وراء الجيوش ليرد الزحف الجائر المتربص بديار الاسلام وممالك العروبة ضاربا ضرباته الصاعقة الماحقة التى زلزلت هذا الكيان المحتشد المتربص ، فأخذ ينكص على أعقابه فى ذهول ، كما استطاع أن يسهم اسهاما ماجدا فى اندحار السيل التترى المتوحش حين تدفقت سيوله على المسلمين ، ولم يجد من يثبت أمامه غير الجحفل الصابر المؤمن فى عين جالوت بقيادة الملك قطز ، والبطل بيبرس . ومع هذه المواقف المشرفة فقد كان مسلكه السياسى لا يخلو من النقد الصارم العنيف ، اذ أن أنانيته الفاهرة كانت تدفعه الى بعض ما يعد جريمة خائنة ، ويكفى أن نذكر تآمره الغادر على حياة الملك قطز ، فقد اغتاله بعد أن فرحت الدنيا بانتصاره الحاسم فى عين جالوت . ولم يكن الظاهر بحسب حساب مابعد خيانته اللئيمة غير العز بن عبد السلام ، فقد امتنع عن مبايعته حين رأى لون الدم فى يده ، وخاف الظاهر من تكتل الامة وراء العز ، فأخذ يصانع الامراء ويجامل القواد ، ليضمن الى جانبه ذوى القوة والسلاح . وقد واجهه ابن عبد السلام على رءوس الأشهاد بأنه عبد « للبند قدار » لم يثبت عتقه ، فأخذ يتذلل ويحضر شهودا يثبتون خروجه من ملك « البند قدار » وكان الشيخ المسن فى مرضه الأخير فلم يلبث ان لحق بربه ، وتنفس الظاهر الصعداء حين رأى جنازته تمر تحت القلعة ووراءها آلاف وآلاف ممن لايحصون ، حتى قال قولته

المشهورة « اليوم قد استقر أمرى . فان هذا الشيخ لو قال للناس : اخرجوا عليه لانتزع منى الملك »

قال الظاهر قولته تلك ، ولم يدر أن الايام تخبىء له عالما داعية جريئا من طراز العز ، آلى على نفسه أن يوفى بعهد الله على العلماء أن يقفوا مع الحق فى كل سبيل . فحمل الراية ونزل الى الميدان .

كان الفقيه العلامة محيى الدين النووى ، ذا هيبة وجلال . وقد تنقل فى جميع العواصم الاسلامية لينهل من حياض الثقافة فى كل مركز من مراكزها النائية ، ورجع الى دمشق يجر وراءه فقها وعلما وورعا . فقام بالتدريس وأخذ فى التأليف المستوعب الجامع حتى طارت له شهرة واسعة فى فقه المذهب الشافعى . ونحن نجد آراءه الدقيقة حتى فى غير كتبه يتناقلها المؤلفون لتكون أداة ترجيح بين رأى ورأى . وقد جرى العامة والخاصة من الفقهاء على اعتقاد الصلاح والولاية فيه ، حتى نرى شيخا جليلا كتقى الدين السبكى ينزل الى قاعة الحديث الأشرفية حيث يجلس النووى ويسير فيمرغ وجهه على بساطه ويقول لمن حوله :

عسى أنى أمس بحر وجهى مكانا مسه قدم النواوى

على اننا الآن نلمس نور قلبه فى كثير من مؤلفاته مثل رياض الصالحين ، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الابرار ، وبستان العارفين فى التصوف ، اذ أن أمثال هذه الكتب تفيض بضياء مشرق يستمد شعاعه من التقوى الخاشعة واليقين الصريح . أما دقته العلمية فتتضح فى كتب أخرى مثل التحرير فى الفقه ، وروضة الطالبين ، والمنهاج ، والمجدع وغيرها مما لا يزال اكثره مخطوطا الى اليوم . ولسنا الآن بصدد تحديد مكانه العلمى ، ولكننا نمهد بذلك الى الحديث عن شجاعته الادبية ، وايمانه الجرىء .

لقد اشتد الظاهر فى جمع الضرائب والمكوس من العامة ليستعين بها على الجهاد ، حتى وصل به الشطط الى ضروب من العنت والارهاق . ودار الشيخ بعينيه فرأى كثيرا من التجار يجردون من أموالهم ، وتحيط بهم طائفة من غلاظ الجباة . يغتصبون ويسلبون ؛ فاذا اعتذر احدهم بضيق اليد تعرض متجره للنهب وقد تتهاوى عليه السياط المحرقة دون رحمة واشفاق . فكتب الى السلطان يلفته الى ذلك ، ويوصيه بالعدالة والحق فيما يأخذ ويدع من الأموال ويشرح ما شهده بنفسه من مآس قاسية تنفطر لها الأكباد ؛ وقد أغلظ عليه القول اذ بالغ فى التهديد والوعيد ؛ وطار الخطاب الى الظاهر فرأى أن العز بن عبد السلام قد رجع فى صورة عالم جديد هو محيى الدين النووى ،

فظن أن المدافع الثانى ليست له مكانة العز ومنزلته ، ورأى أن يواجهه بالشدة قبل أن تلتف حوله النفوس ، ويصير ذا صدى مسموع يقلق ويهيج ، فرد عليه بكتاب قارص يحمل الانكار والتوبيخ ، ويشير بالوعيد القاهر لكل من يتدخل فيما ليس يعنيه ، ثم هو لا يقتصر على الشيخ واتباعه من العلماء بأن ينتقل الى الرعيـة فيرميها بالبخـل والشغب ، ويعلن أن أمر الجباة نافذ الطاعة مهما غلوا فى المكوس وتهجموا بالسب والضرب اذ هم اعـوان الدولة ورسلها لدى النـاس . وقد ظن الملك الظاهر انه بذلك قد أطفأ الثائرة وكمم الأفواه . وصل الرد الى الامام المجاهد ، فقرأه متعجبـا ثم دعاه داعى الحـق الى أن ينقض الباطل ، ويحق الحق ، فلم تأخذه رهبة من حاكم جبار يعتصم بالقـوة والجاه والسـلطان ، ودعا من فوره بالدواة والقـلم ليرد على كل كلمـة جائرة تضمنها قـول الحاكم الباطش ، وقد غمـرته سكينة الايمان فما احس بخوف ، أو تهيب من دفاع ، وكان فيما قال رضى الله عنه وطيب ثراه :

« اما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلمـاء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، واى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ، وأما أنا فى نفسى فلا يضـيرنى التهديد ، ولا اكثر منه ، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فانى أعتقد أن ذلك واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى « فانما هذه الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القـرار . وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » ، وقد أمرنا رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أن نقـول الحق حيثما كنا وألا نخشى فى الله لومة لائم » .

وصل الرد الجرىء الى صاحب الامر فأثار فى نفسه ضروبا من الانفعالات الناقمة وجمع مستشاريه ليأخذ رأيهم فيما يجب ان يقوم به ازاء هذا العالم العنيد ، وقد استمع الى كثير مما يتعارض ويتناقض بين داع الى العقاب ومشير بالتسامح والاغضاء وقد رأى الظاهر بعـد ما سمع أن يجنح الى التهادن اذ أنه لو سارع باعلان غضبه على الشيخ لجعله بطلا كبيرا على مرأى من العامة ، ولأصبح بمحنته هذه رمزا للدفاع المخلص ، ولواء يلتف حوله المعارضون وذوو الأغراض .

والواقع أن نصـيحة الشـيخ برغم قسـوتها الصريحة قد فعلت فعلها فى نفس الحاكم ، فاضطر الى أن يجمع الجباة ويشير عليهم بالرفق والملاينة ، وان يحذرهم غضب العلماء من الخاصة والجمهور من العامة ، وان كان فى واقعة لا يستطيع أن يتخلص من حنق مكظوم أثاره الشيخ فى نفسه ، وأنى له وهو انسان يجب أن يأمر فيطاع .

مرت هذه الحادثة ، لتعقبها حادثة اخرى اشد منها عنفا وايجاعا فقد تهيأ الظاهر الى بعض حروب أعدائه من خصوم الاسلام ، وأراد ان يأخذ من أموال الرعية ما يستظهر به على العدو ، واستفتى العلماء فى ذلك . فأفتوه بالجواز ، ولكن محيى الدين يمتنع عن الفتوى . ويعلن ذلك فى اصرار ، لو ملك الظاهر زمام عاطفته لتدبر وفكر فى وجهة نظر الشيخ ، ولكن تسرعه الغاضب اوحى له أن يعقد اجتماعا عاجلا يشهده الجمع الحاشد من الناس ويحضره النووى ، ليظهر فى ثوب المنفر عن الحرب الصـاد عن مجالدة الكفار ! فيـكون موقفه عنـد الجميع غير كريم . وتسقط مهابته لدى الناس .

وتم للملك ما اراد فاكتمل الحفل بأعيانه ووجوهه وذوى الرأى فى البلاد .. وتقدم محيى الدين بقدم ثابتة ليسأله الظاهر فى عناد :

لماذا لا تجيز أن تجمع الأموال من المسلمين لننفقها فى الجهاد كمـا أفتى زملاؤك من الفقهاء ؟

فرد الشيخ فى حزم اخاذ : كلنا يعلم ان لديك الف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية نصيب من الحلى ، فاذا انفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ مال الرعية .

يا لله ، لقد دهش الحفل من صراحة الرد . وأشرقت الابتسامات فى الوجوه لتعلن اغتباطها بهذه المجابهة الرادعة . وتطلع الملك الظاهر الى رفقائه ملتمسا من يسعف برد منقذ ، يحول دون الافحام والالجام فلم يجد غير الشيخ محيى الدين ينظر اليه فى كبرياء عالية تحتم على الناس أن ينزلوها منزلة الاكبـار والاعجاب ، حـين تجيز لهم أن يشمتوا بجبروت السلطان وقسوة جباته من الاجناد ، ولكن سطوة الرياسة لم تمنعه أن يصيح فى وجه الرجل : اخرج من بلدى – يعنى دمشق – اذ لا يجوز أن تساكننى فى مكان .

وتدفع النخوة زملاءه من الفقهاء ، فينسحبون من الحفل مجتمعين ، ويسود الهرج والمرج صفوف الناس ، فيخشى الحاكم سوء المقـال ، ويتراجع قائلا :

ولماذا تخرج ! أذنت لك بالمقام . فيقول محيى الدين فى ثقة : ومن ادراك أنى سأقبل المقام لديك لا بد من الرحيل !! ثم يتفـرق النـاس مبهورين !!

لو أن ذاكرة الظاهر كانت حادة نافذة ، لتذكر ان العز بن عبد السلام قد وقف من الملك قطز هذا الموقف حين هم بجمع المال من الرعية قبل موقعة عين جالوت اذ أعلن سلطان العلماء أن المال محرم على السلطان قبل أن يستنفد ما لدى مماليكه وجواريه من ذهب ولؤلؤ ... ولكن الملك الظاهر لم يتذكر ذلك الا حين مثل محيى الدين دوره فى شجاعة وايمان ، فاضطرب صاحب الامر ، وتخيل الموقف السالف وقد شهده بعينيه منذ أعوام !! ورأى أن العز الذى استراح بفقده قد عاد من جديد فى صورة محيى الدين ، فعض على شفتيه ودمدم يقول : ذرية بعضها من بعض ! ما أشبه الليلة بالبارحة فيما كان .

ابن دقيق العيد فقيه شجاع

آن لنا أن نتحدث الآن عن ابن دقيق العيد كما تحدثنا عن أستاذه الفذ عز الدين بن عبد السلام ، وعن زميله الشجاع محيي الدين النووى

والحق أن العصر المملوكى حافل بأئمة الدين وأعلام الشريعة ممن ملئوا المكتبة العربية بذخائرهم العلمية وآثارهم الاسلامية فوق ماضربوه من المثل الرائع من الذياد عن الحق والدعوة الى الطريقة المثلى فى الحياة . وان الدهشة لتأخذنى حين أجد كثيرا من المؤلفين يغمطون هذا العهد حقه فيزعمون انه عصر تخلف وانحطاط ، وربما كان ذلك صحيحا فى الانتاج الأدبى من شعر متكلف ونثر مصنوع . أما الانتاج العلمى فلا نعلم عصرا حفل بالموسوعات الرائعة ، والمجلدات المتنوعة فى شتى ضروب الثقافة الاسلامية من فقه وتفسير وتاريخ وحديث وتراجم أعلام كهذا العصر المديد ! وقد يقال انه تأليف تقليدى فى أكثره . ومجال الابتكار فيه ضئيل محدود ، ولكنه مع ذلك صان الثقافة العلمية ومنع فيضانها الزاخر من التبدد فى فلوات شاسعة اذ شق له المجرى الطبيعى وأقام الشواطىء والجسور !! ولك أن تنظر الى كتب الطبقات والتراجم لترى لكل عالم من التآليف المتزاحمة ما يدفع الى الثناء !! وها هو ذا ابن دقيق العيد قد أسهم فى أكثر ضروب المعرفة تأليفا وتدريسا !! وقد فاق أكثر زملائه بأسلوبه الأدبى واهتمامه بالروح البيانى مع تعمقه الفقهى ، ورسوخه العلمى . الى حد أنه تفوق فى دراسة مذهبين من مذاهب الفقه هما مذهبا مالك والشافعى ولم يشأ أن يقتصر على وجه واحد بل قارن وعلل ورجح ! وهذا مثل واحد لنبوغه فى فرع واحد من فروع العلوم فكيف اذا قرأت ديوان خطبه المنبرية وشاهدت من جزالة العبارة ، ونصاعة البيان ما يستغرب وجوده لعالم راسخ من علماء هذا العصر ، هذا الى هيامه بالشعر — لا على طريقة العلماء ممن يتكلفون البيت والبيتين والثلاثة بل على منهج الشعراء ممن يسعون للجودة والافصاح ! وان عالما يجمع هذه المزايا لجليل رفيع ! أما جرأته فى الحق فقد شاكلت جراة انداده من الأئمة الأفذاذ ! وقد تعددت مواقفه الباسلة فراعت وأدهشت ، وكان لها أثرها البارز فى الاصلاح والتوجيه لأن ابن دقيق كان من المهابة والجلال بحيث يستمع الملوك والأمراء الى

منطقه مكرهين او طائعين ، كما أن عزوفه عن المناصب المرموقة قد أضاف الى عظمته النفسية ومنزلته الاجتماعية ما أكمله وعظمه ، فان منصب قاضي القضاة مثلا يعتبر أخطر المناصب الدينية في دولة تحكم بالكتاب والسنة ، ومع تهافت الكثيرين على تبوئه المشرف ، فقد اعتذر عنه الشيخ آبيا ، ولكن الالحاح المتزايد قد اضطره الى القبول بعد أن اشترط على ذوى الامر شروطا تحفظ للقضاء كلمته النافذة ، وسطوته الفالة دون تعويق .

تبوأ الامام الورع مكانه القضائي واصبحت له الهيمنة التامة على جميع قضاة الأقاليم ، فرأى بادراكه النافذ أن أمراء المماليك وخاصتهم يبذلون وساطاتهم المتوالية الملحة لدى القضاة لتأتي الاحكام كما يشتهون ، وعرف أن في بعض ذوى النفوس المترددة من يخضع الى ارهاب أمير او بطش مملوك فيوافقه على هواه في مجلس القضاء ، فراى أن يحسم الموقف حسما لا لبس فيه ، فأرسل منشورا عاما من تأليفه وبتوقيعه ، يدعو الجميع الى التزام نصوص الشرع ، واطراح ما يؤثر على تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات ، وشدد في النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام ، وخوف بعذاب الله ، وجزاء الآخرة . وكان منشوره القضائي مع سمو هدفه ، ورائع توجيهه قطعة فنية ، تجمع الصياغة المشرقة والاقتباس البارع ، وتشهد لفن صاحبها بالابداع والتأثير ، ونحن ننقل منه ما يكشف عن هدفه الخلقي ، وفنه البياني ليعطى الفكرة الصائبة عن ابن دقيق .. قال رحمه الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم يأيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، هذه المكاتبة وفقه الله لقبول النصيحة ، وآتاه لما يقربه قصدا صالحا ودنيا صحيحة ، أصدرنا اليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الاعين ، وما تخفى الصدور ويمهل حتى يلتمس الامهال بالاهمال على المغرور ، تذكرة بأمر ربك فان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ، ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه بمغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فاني أخاف أن يتردى فيها فيجر من ولاه والعياذ بالله معه ، والمقتضى لارسالها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة . والله ان الامر لعظيم ، وان الخطب لجسيم ، ولا أرى مع ذلك أمنا ولا قرارا ولا راحة ، فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، وأقصر أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم ،

وما أنا وأنتم أيها النفر الا كما قال حبيب العجمى وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق ، فقال « اذا وقعتم فاحتالوا » .

وقد شاء الله لهذا الناصح المحذر أن يكون موضع الاختبار لدى مسألة دقيقة يتطلب احقاق الحق بها مزيدا من الشجاعة الأدبية والعظمة النفسية ، وكان ابن دقيق العيد بازائها عند حسن ظن العلماء الأماثل به . فجلى مبرزا مع العدل ، وقمع الباطل بانصافه فهان واستكان .

لقد كان الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر سنة٧٩٧، وقد أعطى مملوكه الأمير منكو تمر سلطة واسعة اذ جعله نائب السلطنة، وأخذ يرشحه للقيام بالأمر من بعده ، فأخذ الأمير ينكل بأعدائه ، ويبعث من الرهبة فى النفوس ، والفزع فى القلوب ما ملأ الصدور حفيظة عليه ، وضيقا به ، ومقتا له . وكانت له رغبة فى المال تتكاثر فى نفسه بتكاثر مايجمع ويغصب . ولا يعرف من القناعة ما يردعه عن السلب والانتهاب، لأنه فى عصر يصير به المالك للمال مستطيعا أن يبذل الكثير فى تأييد سلطانه ، وجميع الناس حوله ، وشراء الأمراء والقواد بالهدايا والذخائر ليكونوا فى موكبه . ان لم الامر له ، وأصبح ــ بعد وفاة السلطان ــ سيد البلاد ، وكان ابن دقيق يعلم ذلك الشره البالغ فى نفسه ، ويأخذ السبيل على أطماعه ما استطاع ، وقد قدر الامير الماكر مكانة قاضى القضاة وخشى أن يصطدم به فيتعرض الى سخط العامة والخاصة تعرضا يهدم ما بيته من الاصطناع والتودد للناس ، الا أن حبه الأعمى للمال دفعه ذات مرة الى مواجهته راجيا ان يتساهل الشيخ بعض التساهل فيتيح للأمير أن يسلب ما يريد .

وخلاصة القصة : أن تاجرا كبيرا من التجار قد مات وترك وراءه ثروة هائلة ، فراى منكوتمر أن يدعى أن له اخا سماه وعناه ، وتقدم به الى القاضى ليأخذ الميراث ، فاذا تم ذلك فان الامير يستطيع أن يستولى عليه من الأخ المزعوم لقاء هبة محدودة ، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهولة الهينة فى اعتقاد الامير ، فرأى أن يحتال لذلك ، واختار احد كبار خاصة الامير «كرت» وأوفده الى قاضى القضاة، فاستأذن مستخذيا وسلم ، فقام له القاضى نصف قومة ، ورد عليه السلام وأجلسه ، فأخذ يتلطف فى الحديث متوسلا الى اثبات أخوة التاجر بشهادة الأمير منكوتمر نائب السلطنة والمرشح الأول لولاية عهد السلطان !! ولكن ابن دقيق ــ نضر الله وجهه ــ ينظر الى الامير « كرت » مستخفا ، وهو يقول :

وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟

فيحمر وجه الرسول ويقول : هو عندنا وعندكم عدل يامولاى !

فيصيح الشيخ : سبحان الله سبحان الله ثم ينشد :

يقولون هـذا عندنا غير جائز ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

وكرر البيت ثلاث مرات ثم قال « والله متى لم تقم عندى بينة شرعية تثبت أخوة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن أثبتها بحال » .

وراجع الأمير كرت نفسه ، فثار عليه ضميره ، وصاح من فوره فى مجلس الشيخ : لا اله الا الله ، هذا هو الاسلام !!

مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يخبره ان الامير منكوتمر يريد الاجتماع به ، فصاح فى وجهه : قل له ان طاعتك ليست واجبة على . ثم التفت الى من حوله من القضاة ، وقال : اشهدكم انى عزلت نفسى باسم الله ، قولوا له يول غيرى .. قال المقريزى فى السلوك : وعاد الشيخ الى داره وأغلق بابه ، وبعث نقباءه فى مصر الى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الأنكحة فقبلوا طائعين .

وقامت الضجة فى البلاد ، فقد عزل شيخ العلماء وقاضى القضاة نفسه من مباشرة أمور الناس وارسل الى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة وعقد وثائق الزواج ، ووصلت الضجة الى الملك المنصور ، فهاج واضطرب وجعل يعنف منكوتمر على نزقه وتسرعه ، ثم أرسل الى ابن دقيق يستدعيه فاعتذر ، ولم ييأس السلطان فواصل السعى وارسل طوائف العلماء والوجهاء الى الشيخ يستعطفونه ويرجونه فى مقابلة السلطان ، وله أن يتمسك برايه كما يشاء ، وبعد لأى ذهب الامام الورع الأشم ، فقابل الملك المنصور . فتلقاه بحفاوة وفرحة ، وعزم عليه ان يجلس معه على كرسى واحد ، فبسط الشيخ منديله وكان خرقة من الكتان ، فوق الحرير الموشى بالذهب على الكراسى ، ثم جلس فى اعتداد فجعل السلطان يتطلف اليه ويتذلل ، ويرجوه أن يعود الى منصبه القضائى ويحكم بما يشاء ! فقبل بعد جماح .

وانتهز السلطان فرصة قبوله فقال فى توسل : ياسيدى هذا ولدك منكوتمر فادع له الله !!

فنظر ابن دقيق الى منكوتمر وكان جالسا بين الحاضرين فى حال من الخجل تدعو الى الرثاء ، ثم قال منكوتمر لا يصلح ، لن يجىء منه شيء ثم قام لوجهه ، وترك منديله على الكرسى ، فتناول السلطان خرقته البالية واخذ يمسح بها وجهه متبركا ، ثم تزاحم عليها الامراء ، فجعل الملك المنصور يقطعها قطعا ويعطى لكل أمير مزقة يسيرة يلتمس بها البركة والغفران .

قال الراوى : فمن رأى تهافت السلطان على منديل الشيخ ، وتزاحم الأمراء على خرقته البالية رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الايمان ...

ابن تيمية يصدع بالحق

كان ابن تيمية بطلا فذا ، لا يختلف فى بطولته أحد حتى خصومه فى الرأى ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

ولم يكن هذا العالم المفضال يحارب فى ميدان واحد ، يقصر عليه همه وفكره وقوته . ولكنه اتجه بنشاطه الحافل الى ميدانين يختلفان مذهبا واستعدادا ، ويجتمعان على نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، وقد رجع منهما ظافرا مرفوع الراية ، تتحدث الاجيال عن بلائه ونضاله وتتساجل الأقلام فى تشريح آرائه ، واذا كان من الناس من لا يسير معه فى رايه فتلك طبيعة الاجتهاد الفكرى ، اذ يجذب الى نتائجه الدقيقة فريقا دون فريق ، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة .

أجل حارب الامام فى ميدان داخلى وفى ميدان خارجى . فكان ميدانه الداخلى حافلا بمن يخاصمونه ويشاكسونه من رجال التقليد ، وادعياء الصلاح والعلم وفيهم ذوو المكانة لدى السلطان فتحرشوا به ، وحرفوا كلمه عن موضعه ، وساقوه الى السجن الظالم والنفى القاهر فما استكان !

أى مجتمع كان المجتمع الاسلامى فى عهد ابن تيمية . لقد كان يزخر بطوائف مختلفة من أصحاب الآراء والمذاهب يرجعون بها الى صميم الشريعة وهى بعيدة عن روح الاسلام ، ويسوقون العامة سوقا الى مبتدعات ضالة وانحرافات مريضة ، وقد نظر الامام فيما حوله فراعه أن يرى الخطأ فى الفهم ، والانحراف فى السلوك والتزمت فى التطبيق والتكتل مع الباطل فصمم على الجهاد ، وتعرض بمعوله الهادم الى أطواد راسخة تستمد ثباتها من الغفلة والضيق والتعنت ، وما برح يضرب به هنا وهناك ، حتى آذن جهاده بالفلاح .

كان العالم الاسلامى يضطرب بآراء جدلية لطوائف تتشعب وتتناحر من شيعة ذات فرق ، ومن أشاعرة ومعتزلة وجهمية ومن حنابلة ومتصوفة ومن مبتدعة ومقلدة ، ولكل فريق علماؤه ورجاله ، ومعارك الكلام تحتدم فى غير طائل ، وحقائق الأشياء تتبدد فى صحراء مجهل . فهناك تناحر حول الله وماهيته وما ثبت له من الصفات وما يتصل به من الأشياء مثل الاستواء والنزول وخلق القرآن واثبات الصورة والعين

واليد والوجه ، يرى قوم أن كل ذلك كنايات تؤول ، ويرى آخرون انها جوارح تجسم ، وتدور المعركة على ملأ من العامة فى المساجد ، فيهرفون بما لا يعرفون ، ويتعصب كل سامع لما يميل اليه ، ويطول اللجاج بعيدا عما يجب من صفاء العقيدة ووضوحها فتنصرف النفوس عن مجاهدة الأعداء من التتار ، وبقايا الصليبيين ، وينظر الامام فيجد أن المسألة فى حاجة الى حسم ، فيصدع برأيه الصريح ناصرا رأى السلف بعيدا عن التأويل ويثبت لله الاستواء والنزول والعين واليد كما وصف بذلك نفسه ولكن بدون كيفية أو تمثيل أو تشبيه ، وانما له يد ووجه وعين لا نعلم صورها ويتهمه بعض الخصوم زورا بالتجسيم وتدور الرحى من جديد فلا يقتصر على جهاد الرأى بل يلجأ المعارضون الى السلطان فى دمشق والقاهرة ثم يصدرون فتواهم بتجهيل الشيخ وتضليله ، ويلحون فى سجنه ! فيكون لهم ما يريدون !

وينظر ابن تيمية نظرة ثانية ، فيجد طوائف الصوفية قد تمكنت من العامة لا لتسير بها الى المقصد الصحيح ، بل لتفرض على دينها أمورا دخيلة على الفكر الاسلامى والعقيدة المحمدية فى ذات الله ، فهناك من انصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول من افترضوا فى الله فروضا لم تأت بهذه الشريعة السمحة البيضاء ، وأخذوا يتحدثون عن فناء المخلوق فى الخالق أو اتحاد الخالق بالمخلوق على نحو فلسفى غامض يترك النفوس قلقة لا تعرف ما تستقر عليه فى ذات الله ، وقد جعلوا أقوال ابن عربى وابن سيرين نصوصا اسلامية صريحة فى هذا المضمار ، وجذبوا اليهم من الاشياع من لايميزون بين الطيب والخبيث ، حتى طم السيل ، وأصبحت عقيدة التوحيد فى مهب الزعازع العاصفة ، وتطلبت من يثبت فى الميدان ليعيد الحق الى نصابه من ذوى الرأى النزيه البصير ، فكان ابن تيمية فارس الحومة ، اذ نازل خصومه بالرأى والحجة وعقد مجالس المناظرة والمناقشة حتى فزع من خطره ذوو الرياسة من المتصوفين وأشياخ الطرق ، ووجدوا من بأس السلطان ما وجده سواهم من أعداء الشيخ ، فتحالفوا عليه ، وعقدوا المجالس لمحاكمته وافتوا بعودته الى السجن ، وكأنه مذنب شريد ! ومن العجائب أن يحقق لهم مرة ثانية ما يبتغون وثالثة الأثافى أن ينظر الشيخ فيجد قبور الأولياء تتخذ وسائل توبة لتحقيق الرغائب واجابة المطالب ، فلا ينقطع عنها آمل يلتمس العون من ضريح ساكن يرقد به انسان لا يملك فى دنيا الناس نفعا ولا ضرا ثم يظن به الحول والطول ما يظن بخالق الكون ، ورب الوجود ، فلا ينصرف المسلم الى ربه يرجو رحمته ، ويخشى عذابه بل ينصرف الى أمل خائب يؤيده رجال لم يفهموا روح الاسلام على وجهه الصحيح ، ولا بد لهؤلاء من قامع يصيح فى آذانهم الغافلة لتسمع الرأى السديد ، ويوقظ عيونهم

النائمة لترى الوضع الرشيد ! وقد تحقق ذلك على يد ابن تيمية اذ هاجم أرباب التوسل بالأضرحة والمزارات مهاجمة ألبت عليه الشر فصابر وثابر وقبل المحنة الجديدة قبول اولى العزم من المجاهدين ...

على أن شجاعته الأدبية قد دفعته الى معارضة أقوال الأئمة من صفوة رؤساء المذاهب الزائفة فى أمور كثيرة فقد نظر الشيخ الى ملابسات زمانه وظروف عصره وأوانه ثم أتى ببعض ما يخفف العبء ويوهن الأصر من الأحكام كفتواه بوقوع الطلاق ثلاثا مرة واحدة ، وكان موقفه فى ذلك وما شابهه خطيرا ، لأنه يعارض أقوالا صريحة أجمع عليها أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ممن مضى الزمن بتبجيلهم ورسوخ أقدامهم فى مضمار التشريع ، وكانت فرصة ثمينة اهتبلها الخصوم فأثاروا العجيج ورموه ظالمين بالفسق والمروق ...

هذه مواقف جريئة لا يتهيأ لها غير من ظفر بشجاعة نادرة ، وعقل صائب ، واستنباط غزير ، وقد كشف معدن الامام ، وابرزت عناصر رجولته النادرة ابرازا يخلب الأفهام .. كما كشفت عن خلق العفو والتسامح فى نفسه ، وهو خلق لا يتمكن الا من روح كبير .. فقد سعى أعداؤه وتألبوا عليه من كل حدب ، واغروا به العامة من الرعاع فاعتدوا عليه بالضرب والايذاء كما أجبروا الحاكمين على سجنه وتعذيبه ، ثم دالت الايام فتغير السلطان وجاء سلطان آخر يقدر الشيخ ، ويصدر عن رأيه ، فعرض عليه أن ينكل بخصومه المتشددين جزاء ما أنزلوه به من أهوال ، ولكن ابن تيمية يضرب المثل الرفيع فى التسامح حين يتلطف مع السلطان حتى يعفو عنهم غير ناقم ، وحتى يقول غريمه الاول قاضى المالكية بمصر ابن مخلوق قولته العجيبة « ما رأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا فى السعى عليه ، وحين قدر علينا بادر بالعفو »

هذا قليل من كثير لاقاه الشيخ فى ميدان الاصلاح الداخلى ، أما ميدانه الخارجى فقد حفل بالروائع فى مجالدة الباطل على شراسته ومناوأة الطغيان على جبروته ، واليك بعض ما كان !!

حين هزم المصريون جحافل التتار فى موقعة (عين جالوت) تقهقروا الى ديارهم خائبين منهزمين ، وكانوا يعضون على شفاههم غيظا من هؤلاء الذين أذاقوهم كئوس الهزيمة لأول مرة فى حياتهم المليئة بالفتك والتخريب ويتحرقون ليوم قريب يثأرون فيه لكرامتهم الجريحة وشرفهم الذبيح حتى كانت سنة ٦٩٩ فتأهب ملكهم فازان لاحتلال الأراضى الشامية تمهيدا الوثوب على بلاد النيل ، وجمع جنوده انزاحفة كالسيل لاتذر من شيء أتت عليه الا حصدته بالسلاح والنار ، فذعرت طوائف كثيرة وسلم فريق من أمراء الشام بلادهم مرغمين فزعين ، وكان

السلطان التترى يتظاهر بالاسلام ، ويصحب معه المؤذن والقاضى والامام، ثم يسلط سيفه على الرقاب المسالمة فيقطعها فى غير ايمان ، وعلى الدماء البريئة فيريقها أنهارا فى ساحات القتال ، وبذلك يفعل مالا يقول ، حتى وصل بجنوده الى (البتك) وفتحت دمشق ابوابها لقائه ، فعز على ابن تيمية أن يرى هذا الطاغية يتجبر فى الارض تحت ثياب الاسلام وهو اما كافر أو فاسق ، فلم تهدأ له نفس وصمم على لقائه متحديا جبروته ومعه فريق من أعيان الدمشقيين ، فيميل فازان الى المداهنة ويبدأ بتقديم الطعام الى الوفد فيأكلون هائبين ويمتنع الشيخ عن الطعام فيسأله السلطان :

لماذا لا تأكل أيها الشيخ . فيرد ابن تيمية فى عناد : كيف آكل من طعامكم وقد طهيتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ولا ملك لأحد لكم فيه !!

فيضطرب فازان مأخوذا ويقول : ولكنى مسلم ايها الشيخ .

فيجيب ابن تيمية فى جرأة : لقد سلطت ملك الكرج الصليبى على المسلمين ودفعت له السلاح والجند ليقاتل بنى الاسلام ! فأين كان دينك حين ذاك ؟؟ بهت الطاغية وبحث عن رد ينقذه فلم يجد غير أن يقول : انا مسلم ومعى مؤذن وقاض وامام !! ولكن ابن تيمية عاجله بقوله:

وماذا تفعل باسلامك وقد كان ابوك وجدك كافرين ولم يفعلا ما فعلت ، لقد عاهدا فوفيا ، وانت عاهدت فغدرت .

ان للحق لرهبة ترعد النفوس وتكبل الأيدى ، وقد غلبت هذه الرهبة المفزعة نفس فازان ، فنكس رأسه ، واندفع يطلب من ابن تيمية الدعاء ، وكان لدى الامام سياسة وكياسة فرفع يده يقول : « اللهم ان كان عبدك هذا انما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وايده وملكه البلاد والعباد ، وان قام رياء وسمعه طلبا للدنيا ولتكون كلمته هى العليا وليذل الاسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره » !! ثم خرج مرفوع الراس وأصحابه يقولون له فى اشفاق : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك بعد هذا .

لا أريد أن أتتبع هذه الحقبة من التاريخ فأسود ما كان من أمر فازان ، ولكنى أقصر الحديث على جرأة الشيخ وحدها فأذكر أنه رجع الى دمشق ليشجع الناس على القتال ، وليقود الفقهاء فى ميدان التدريب الحربى على أعمال الفروسية والجهاد ثم تمضى الأيام فيعود العدو من جديد فيهب ابن تيمية للنضال ويتقدم الصفوف طالبا للشهادة ويخرج السلطان والخليفة من هول الموقف ، ولكن ابن تيمية لا ينكص

بل يشعل الحماس حتى تنجلى المعركة باندحار الأبطال . ويعرض عليه الملك الناصر بعض الهبات فيترفع عن ثمن ينتظر اضـــعافه حين يلقى الله .

هذا موقف حربى فى جبهة القتال يذكرنا بموقفه من أهل جبل كسروان بالشام حين استباحوا الحرمات وحالفوا الأعداء ، وتعرضوا الى الحجاج يقتلون ويذبحون ويسلبون ! فتوجه الشيخ الى قتالهم وكتب الى أطراف الشام . ودعا نائب المملكة الى نصرته ، وأفتى بأنهم أكفر من اليهود والنصارى ، ثم ثبت للهول فى محن خطيرة حتى أراح المسلمين وأمن الطريق ، أما موقفه النادر من الملك الناصر فما لا تغفله ذاكرة التاريخ بحال . لقد سعى الواشون يرجفون لدى السلطان أن ابن تيمية محبوب وانه يجاهد ويفزو ليسلب الحكم ، وكان فى الناصر تسرع واندفاع فبادر يدعو الشيخ ويسأله مغيظا : لماذا تجمع حولك الناس ؟

فيرد الشيخ : لنصرة الاسلام كما ترى ورأيت .

فيحدق السلطان فى وجهه ثم يصرخ : بل تتوق الى الملك وتسعى اليه فى وضح النهار .

فيبتسم ابن تيمية متعجبا ، ويقول : والله ان ملكك وملك المغول لا يساوى فلسا لدى !!

فينكسر السلطان ويبادر بالاعتذار .

لقد اعتصم الامام بالحق فعصمه من الطغاة !! وكان حقا علينـا نصر المؤمنين .

علماء الأزهر يرهبون المماليك والأتراك

كان علماء الازهر فى الفترة التى سبقت الثورة الفرنسية ، كما كانوا فيما تلاها من الأزمات زعماء الشعب والسنة دفاعه ، يرون ظلم المماليك الطاغى ، وتجبر الولاة العثمانيين فيتقدمون الجموع ، ويقودون الثورات ، ويرسلون كلمة الحق فى الاصلاح والعدل ، ولا تهدأ نفوسهم حتى يرتفع البغى ، وينتصر ما طالبوا به من انصاف ، واذ ذاك تستريح ضمائرهم المؤمنة ، فيهدءون ويقرون !

وقد قرأت فى كتاب سيرة عمر مكرم للمؤرخ الاديب محمد فريد أبو حديد فصلا قيما يدور حول جهاد علماء الازهر ، وكفاحهم فى تحقيق العدالة وقمع الفسقة من الحكام ، وقد جعل مؤلف الكتاب عنوان موضوعه « جهاد الشعب فى القرن الثامن عشر » اعتقادا منه أن علماء الدين بالازهر هم السنة الشعب المعبرة ، وزعماء الأمة يصدرون عن رايها ، ويقودونها الى شواطىء الأمن حين تهب الزعازع الباغية ! وذلك ما كان فى عهد تنمر الطغاة من أمثال على بك الكبير ومحمد أبى الذهب حتى جاء مراد وابراهيم فبلغ السيل الزبى وجاوز الطغيان مداه .

وسنعرض هنا نماذج مختلفة من كفاح بعض هؤلاء السادة مستندين فى اكثر الغالب الى ما ذكره الاستاذ فريد مع زيادات هامة من تاريخ الجبرتى راينا الضرورة تلح فى سردها بايجاز ، لتتضح صور الجهاد على وجهها الصحيح !

واول من نشير اليهم من هؤلاء الأعلام الشيخ على الصعيدى فقد كانذا مهابة توجب على على بك الكبير ان يقبل يده وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتى بتحريمه فصار على بك يحرص على أن يخفى أدوات التدخين اذا علم بمجيئه خشية من غضبه ، وكان الناس يلجئون اليه اذا مسهم الضر فيسجل شكاواهم فى صحيفة خاصة ، ويتحدث مع الحاكم فى كل شكوى على حدة ، ولا يلقى بالا لتضايقه البارز فى قطوب وجهه بل كان يصيح فى وجهه قائلا « لا تأسف فالدنيا فانية ، وسيسألنا الله عن تأخرنا فى نصحك ان لم نفعل » ثم يمسك بيده قائلا « انا خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب » !

وقد لاحظ تلكؤا فى اجابة بعض مطالبه ، فخرج غاضبا ، ونفر

الناس وراءه ، وارتبك الأمير فحاول اللحاق به معتذرا ، فأصر الشيخ على الا يعود وأخذ يتلو قول الله « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

أما الشيخ الدردير فقد جابه الطغيان فى مواقف كثيرة ، ونترك للاستاذ محمد فريد أبو حديد أن يتحدث عن بعضها اذ يقول :

« بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ثارت مسألة فى خلاف على وقف ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته ويثور على القانون ؟ أو لابد من الخضوع للقانون ، ولو كان خصمه ضعيفا لا سند له من سلطان الدولة ، وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب وامير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان ، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة ، فلجأ الى القضاء ولوح الأمير القوى بالقوة والبطش وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الأمير الاذعان لحق ، وأصبح الأمر معلقا بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل حرمة وكل سياج ، فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم (وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه) بالمحافظة على القانون والحق ، ولم يترددوا لحظة بل ذهبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه ، فأرعد الأمير وأبرق ، وارغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا وارغوا وأزبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم وكانت مظاهرة كبيرة فأغاق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب ، وأشفقوا من تلك الحال ، فاجتمعوا وتشاوروا وأرسلوا الى الأمير فلاموه على وقفته ، أمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتبونه للناس ، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ، وما يحتمه العرف » .

هذا موقف من مواقف الشيخ الدردير ذكره الاستاذ فريد ، وله مواقف أخرى كثيرة نراها فى تاريخ الجبرتى ، ولعل أهمها موقفه من الامير يوسف الكبير حين منع الأوقاف الخيرية عن طلبة العلم من المغاربة، فرفعوا الشكوى الى القاضى فحكم لهم بما يستحقون ، وكبر على الأمير ان يذعن فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالاذعان ، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرا من حمله ، فكان ما تحدث به الجبرتى حين قال :

« ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع ، فاجتمعوا فى صبحها ، وأبطلوا الدروس والآذان والصلوات وأقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء » وكانت وقفة عصيبة رجع فيها الحق الى أصحابه على أيدى علماء الدين وفى مقدمتهم الاستاذ الدردير .

هذا الغضب للحق قد رفع مكانة العلماء ، وجعلهم يواجهون الظالمين بما لم يتوقعوه ، وقد تحرج النقاش فى بعض الحقوق بين مملوك ظالم وعالم غاضب فقال المملوك متوعدا « والله لأكسرن رأسك » فصرخ فى وجهه العالم يقول متحديا « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » وهاجت الأئمة فتقهقر الأمير يعتذر ...

ولم تكن مكافحة العلماء للطغيان منحصرة فى نطاق المماليك وحدهم بل كانت تتعرض لكل ظلم يقع أيا كان مصدره ، بل انها تهاجم اوامر السلطان فى تركيا ، وتسفه رأى الوالى حين يهم بتنفيذ ما امر به من اغتصاب ، وذلك ما يهدم الدعوى القائلة بأن رجال الدين فى مصر قد عاونوا الاستعمار التركى باغضائهم عما يقوم به من طغيان ، اذ أن حقيقة الأمر هى أن علماء الازهر كانوا يؤمنون بالخلافة الاسلامية كفكرة ، ولكنهم يفرقون فرقا مستنيرا بين ما يجب أن تسير عليه الخلافة فى ظلال الاسلام من عدل ومساواة وبين ما انحدرت اليه على أيدى العثمانيين من شره وارهاب ! وقد هالهم أن تكون الخلافة العثمانية شعارا للظلم الصارخ باسم الدين فكانوا يقرءون ما يفد من المنشورات ويطالبون بترجمتها الى اللغة العربية ثم يصدرون رأيهم القاطع دون استخذاء .

لقد ارسل السلطان التركى سنة ١١٤٨ أمرا خاصا بالغاء بعض الأوقاف الخيرية ، مطالبا بوجوب نقلها الى دائرة الوالى ، ليضيفها بالتالى الى ما يرسل الى الآستانة من الأموال ، وانعقد مجلس الديوان ، فقرأ القاضى العثمانى منشور الخلافة ثم عقب عليه يقول : « أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف » ولكن الشيخ سليمان المنصورى ، أحد أعضاء المجلس من علماء الازهر ـ يقف فيقول فى صراحة :

« ياشيخ الاسلام . هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان ، وفعل النائب كفعل السلطان ، وهذا شىء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد واسبلة فلا يجوز ابطال ذلك ، واذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله ، وان امر ولى الأمر بابطاله

لا يسلم له ، ويخالف أمره لان ذلك مخالفة للشرع ، ولا يسلم للامام فى فعل يخالف الشرع الكريم ! »

يقول الاستاذ محمد فريد أبو حديد ، تعليقا على هذه الحادثة الجريئة « وقد كانت وقفة الشيخ الجليل سببا فى عدول الحكومة عما كانت عازمة عليه ، ولا يسع الانسان الا الاعجاب بمثل هذه الدقة فى القول ، وهذا الاتزان فى المنطق ، وهذه الجراة فى الحق ، كما لا يسع من يسمع مثل هذا القول أن يدعى أن صوت مصر لم يكن قويا فى أندية الحكم ودواوينه ، بل ان مثل هذا القول ينم عن يقظة الشعب وانتباهه الى المحافظة على الحقوق وتقدير حكام مصر لرأى هؤلاء الممثلين الأجلاء ، هذه واحدة للشيخ المنصورى تذكر معها ثانية للشيخ العروسى فى مواجهة قواد تركيا وأعيان الدولة المستقلة من العثمانيين .

فقد اجتمع مجلس الديوان ليقر ما طلبه الوالى العثمانى من اقتراح الاستعانة بجنود من الترك يحاربون المماليك فى الصعيد ، فصاح الشيخ العروسى منكرا : ما يأخذه هؤلاء الاغراب من الأموال حين يقدمون، تدخره لأهل البلاد .

فكظم الباشا غيظه وقال : هـذا رأى السلطان ، وشرع يقرأ فى منشور باللغة التركية ولكن العروسى لا يسكت بل يقول فى حدة :

أخبرونا عن حاصل الكلام ! فاننا لا نعرف التركية .

فيترجم المنشـور ويفهم الشيخ أن الدولة التركية تريد أن تستنزف أموال المصريين مدعية أنها تتهيأ بها لحرب المماليك ، فيتهكم العروسى غير عابىء ويقول فى اعتداد :

« اننى لا أعبأ أن يكون الحاكم من العثمانيين أو من المماليك انما أبحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين ! ثم يلتفت الى الحاضرين من الأتراك ويصيح : اخرجوا اليهم للحـرب ساعة فاما أن تغلبوا أو تغلبوا ، وسنستريح من الجميع !

ويغضى الوالى والقائد مطرقين !

وبعد أفليست هذه زعامة باسلة ؟ ثم ألا تعد مع ذلك نموذجا رفيعا لورثة الانبياء ؟

عبدالرحمن الجبرتي يهاجم الطغاة!

العاقبة للحق ، قضية صادقة ، تبرهن عليها حوادث الدهر ، وتنطق بها حقائق التاريخ وسيرة الجبرتي دليل ثابت يؤكدها أبلغ تأكيد ، فقد وقف الرجل حياته على الانصاف والعدالة فيما يسطر من حادثة أو يرى من عظمة، والمنصفون في كل زمان هدف للعسف البالغ، والاضطهاد الاثيم ، ومن الطبيعي أن ينال الجبرتي ما يترصد زملاءه الصادقين من بغي وتهديد ، بل ان ماناله في حياته وبعد مماته كان أعنف قسوة مما لحق سواه. فقد عاش الرجل في ثلاثة عهود مختلفة ، تعاقبت مندثرة بما لا يقره من العنف والارهاب ! فرصد نفسه لمناوأة الباطل مناوأة سافرة صريحة ! عاش في عهد المماليك الغاشم فرأى المسرح الرهيب الذي تمثل عليه أدوار السلب والنهب والاغتيال ، وشاهد الدسائس والمؤامرات تحاك في غبش الظلام ، حتى اذا انبثق الصبح تفجرت عن مآس نكراء تتفتت لها الاكباد، وعاش الرجل في عهد الثورة الفرنسية ، فآلمه أن يرى أعداء بلاده يلوثون مياه النيل بمآثمهم الفاضحة ، ويحاربون مبادىء الاسلام بما يريقون من خمر ، ويعطاون من شعائر ، وينتهكون من حرمات ! وكانت ثالثة الاثافي أن يستبشر خيرا بتولية محمد على ، نزولا على رغبة الشعب ، حتى اذا ماتمكن سلطانه انقلب على شيعته ، ومثل الادوار السابقة التي قام بها سابقوه ، فاغتال وسلب وذبح وأرهب، والمؤرخ الحزين يرى الايام لا تتمخض الا عن كل منكر أثيم ، فلا يسعه الا أن يسجل ما تقع عليه عيناه ملتزما نزاهة المحايد ، وعدالة المنصف ، والحاكمون من الطغاة لا يقنعون بغير الثناء الكاذب والاطراء المموه ، فاذا نظروا الى صحيفة أعمالهم في مرآة الجبرتي فانما يتفجرون غيظا ، ويثورون انتقاما وحفيظة ، وينصبون من مخاتلهم الحاقدة ما يحيل الحياة في عيني صاحب الحق ظلاما دامسا تتخلله العقارب والهوام ، وتكتنفه المخاطر والحتوف ، وهكذا كانت حياة الرجل ، ولا سيما في عهدها الاخير ، فقد ترصدته مكايد محمد على حتى ختمت حياته ختما اليما سنتعرض له آخر هذا البحث ببعض التفصيل.

مات الجبرتي ، ولكن الارهاب لم يكف عن اضطهاده في قبره ، فقد أضرمت النيران في منزله ، لتأتي على كل ما سطره من مسودات تفزع وتخيف ، ثم امتد الارهاب الى كتابته فصودرت مخطوطاته ، ومنع تداولها وأوعز الى المنافقين من الكتاب بنقدها وتجريحها ، وقد يتحذلق ناقد مغرض

فيقول ان كتابة الجبرتي ليست تاريخا تربط معه الحوادث، وتنبىء المقدمات عن النتائج ، وتسلط عليه أضواء التشريح والتحليل ! كأن المفروض فى الجبرتي أن يتبع طريقة القرن العشرين فيما يخط من أحداث ! وقد فات هؤلاء أن الرجل قدم الوثائق ، وذكر الوقائع ، وأسلف من اليد على الناس ما أسلف ابن الأثير والمقريزى وابن اياس والسخاوى وعلينا نحن أن نأخذ من موسوعته الحافلة ما نأخذه من موسوعات قرنائه المؤرخين ، دون أن نفرض على الرجل شروطا تأباها طبيعة العصر وثقافة الجيل ، ولولا أن بعض المكتبات الفرنسية قد احتفظت بنسخ من يوميات الجبرتي، ما استطعنا أن نقرأ تاريخه الحافل !! فقد ساعد قيام الثورة العرابية على نسخ صورة ، وطبعها كما كتبها المؤلف فى أربعة أجزاء متخمة مكتظة ، ذات حجم رائع، ورسم حافل ، ثم توانت الايام وكتاب الرجل لايلقى مايستحقه من التنويه! وسهام النقد تصوب الى أسلوبه المتواضع ، وما يشربه من عامية ركيكة ، وأساليب هابطة! ولو سلك الجبرتي مسلك أدباءعصره فى التزام المحسنات الزائفة واصطناع التشبيهات الملفقة ، ما أمكنه أن يقدم صورة أمينة من واقع مصر ، كتلك التى قدمها فى سفره الجليل ، ولغرق القارىء فى كناية واستعارة ، وسجع وجناس وطباق ، دون أن يجد للمرآة الصادقة ، والصورة الصحيحة لأمد واسع من تاريخنا العزيز، والآن فقط ، وبعد قيام الثورة الاخيرة أمكن لتاريخ الجبرتي أن يأخذ مكانه اللائق فنهض الكاتبون للحديث عنه منوهين ، واقتبس الناشرون من حوادثه الخالية صحائف يقرؤها الناس مقدرين مغتبطين ، واندفع المخلصون الى كتابة حياة الرجل كتابة منصفة ، ترفع عنه أوضارا كثيرة مما صحبه من عنت الدهر وزيف الأيام وهكذا يقدر الجبرتي وتاريخه بعد ليل دامس ، بطىء الكواكب ، حالك الجنبات ، بل هكذا يظهر الحق من محنته الغاشية ، ناصع الوجه ، مؤتلق الجبين ، فترددت الأرجاف بهواتف حارة جائشة تجأر فى قوة وايمان بأن العاقبة للمتقين !

أما كيف نشأ الرجل ؟ وكيف اندفع الى كتابة تاريخه ؟ فذلك ما سنعرج عليه فى هذا الحديث ! كان حسن الجبرتي والد عبد الرحمن من كبار علماء الأزهر الذين ألموا بدراسة علوم اللغة والتشريع ، ولو أنه قصر اطلاعه على ما يتناقله زملاؤه فى دروسهم الازهرية من نحو وفقه وبلاغة وتفسير ، لكان عالما كمئات العلماء من نظرائه ، ولكنه اتجه الى دراسة الرياضة والمسائل الفلكية ، فانتشرت له براعة خاصة تسمه بسمات تختلف عن ألوان زملائه ومعارضيه ، كما تدفع فريقا من التلاميذ الى التشبث بأستاذيته والتعلق بدروسه ، وقد ساعده على اجادة مسائل الحساب والهندسة ما اندفع اليه من حياة عملية ، هى الى التجارة والمضاربة أقرب منها الى المذاكرة والتحصيل ، فقد ورث الاب عن أهله وزوجاته

ضياعا ومنازل ومتاجر وخالط سيلا مزدحما من العملاء ، ممن يساهمون فى تنمية ثروته وانتاج محصولاته ، فكان اتساع أفقه الحيوى باعثا على تضلعه فى علوم الحياة وفنونها المختلفة ، وقد اتجه الى الموازين والمكاييل فأخذ يضبط مقاييسها ، ويعيد السلامة الى مختلها ، ولم تدفعه الى ذلك رغبة فى الثراء وطمع فى الاكتساب ، بل ان الموهبة الكامنة فى أطوائه كانت تتطلب متنفسا فسيحا ، فى ضبط المختل ، واقامة المنحرف ، كما يندفع الرسام الى تصوير مناظره ، وتنميق لوحاته ، دون أن يعرضها فى سوق عام للربح والاتجار ، بل ليشبع رغبة ملحة تتطلب المنافذ المتعددة للاشباع وقد ساعده ثراؤه الطائل على مزاولة موهبته فى فرحة واغتباط ، كما جذب اليه هذا اليسر الوارف فريقا كبيرا من زملائه ومريديه فكانوا يغشون منازله ، ويلمون بحلقاته تارة لاستماع الدرس ومناقلة الحديث ، وطورا للراحة والمطعم فى مأى فسيح ، ومكان كريم ، وذوو الثراء فى كل موطن قبلة الانظار ومراد الآمال .

وفى هذا البيت الزاخر بالنعيم والرفه ، الحافل بالعلماء والفقهاء ولد عبد الرحمن ونما عوده الاخضر نموا هادئا مسعدا ، يجد حظه من الرى الدائم ، والتربة الخصبة ، ذات الهواء البليل ، وقد استقبل الوالد طفله استقبالا فاترا حزينا ، اذ أن الرجل قد تعود أن يستقبل الاطفال من قبله ليعيشوا فى كنفه عاما أو عامين ثم يعجلهم الموت عن استكمال حظهم فى الحياة ، وقد دفن الاب الثاكل خمسة وثلاثين مولودا قبل عبد الرحمن من زوجاته وسراريه ، دون أن تسعده الايام بوليد يخطئه الموت ، وكان يعلل ذلك بأن نطفه تنحدر من صلبه غير متكاملة فلا تلبث أن تعجل بالرحيل ، واذ جاء عبد الرحمن توقع أبوه نهايته القريبة ، فلم يشأ أن يفرح بمصباح سينطفىء شعاعه بعد قليل ، أضف الى ذلك أن الوليد الجديد من احدى سراريه لا زوجاته ، وهو بهذا أنأى عن القلب والعين من ولد الحبيبة! ولكن القدر أخلف الرجل ، فعمر وليده السنوات المتتابعة دون أن يتطرق الى عوده انفض ذبول وجفاف ، ونشأ منشأ غيره من أولاد العلماء يحفظ القرآن والمتون . ويلم بالمدارس والكتاتيب ، حتى أسلمته الطفولة الى اليفاع فكان له فى حلقات الازهر وفى دروس والده وفى مذاكرة من يغشون منزله من العلماء ينبوع متدفق يفيض عليه بالعلم والادب والسداد وكان الفلام الناشىء ذا استعداد طيب للبحث والافادة ، فأثمر ذلك كله فى عقله أخصب الثمرات !!

تثقف عبد الرحمن بثقافة عصره ، وانتفع بأحاديث والده عن زملائه من العلماء وأصدقائه من أمراء المماليك ، ووجوه الدولة وأعيانها ، فعرف كثيرا عن أحوال مصر ، وأمكنه أن يلم بسياسة رؤسائها الماما يختزن فى ذاكرته ثم يتسرب الى أطوائه ، حتى طوى الموت اباه فترك له ثراء طائلا

من حجر واطيان وعمارات وأورثه صداقات رفيعة تمت الى وجود العلماء وصفوة الرؤساء ، وقد اضطر الشاب أن يتفقد أملاكه بنفسه ، فرحل عن القاهرة الى طنطا وكفر الزيات والمنصورة ودمياط والاسكندرية ورشيد ، وفى كل بلدة يحلها يجد من يحدثه من الاعيان والعلماء ، كما يخبر طبقات الشعب المختلفة من حكام وفلاحين وصناع وعمال ، فعرف بلاده معرفة شخصية ، وسبر الاغوار القاصية فى الاعماق والسرائر ، ورجع الى القاهرة وقد صلب عوده ، وغزرت تجاربه ، واتسع نطاقه فى الحياة !

واصل الشاب دراسته بالازهر ، حتى أصبح عالما مرموقا يستمع اليه التلاميذ ويقصده العلماء ليعيدوا سيرتهم مع أبيه ، وقد فرح العالم الثرى بمنزلته الكريمة ، وأفسح بيته لارباب العلم ، وأعلام الازهريين ، ووثق صلاته بمن يلمس فيهم الوجاهة والرفقة من علية الناس ، كما أكب على خزانة والده ، كى يستتم علوم الفلك والهندسة والحساب ، ووقر فى ذهنه أن يعيد سيرة الوالد ، فيتبعه فى طريق حياته ذراعا خلف ذراع !

ولكن رجلا كبيرا يفد الى مصر من اليمن فيرسم لعبد الرحمن آفاقا جديدة يجذبه الى التطلع اليها فى شوق واندفاع ، فيقبل الازهرى الشاب على استاذه وقد شاهد فيه طرازا خاصا لم يعهده ، رآه يختلف اختلافا بارزا عن علماء الازهر فى التفكير والتأليف والملبس والاتجاه ، وقد أحرز قبول العقلاء وارتياحهم ، فتوافد الطلاب على مجلسه وسعى الامراء الى منزله ، وقبل الساعون بين يديه الارض تقبيلا لايكون لغير الخلفاء والامراء! ذلك هو العلامة الكبير السيد أبو الفيض المرتضى الزبيدى البحاثة اللغوى الجهير !

لقد كان تأليف الازهريين لعهد الجبرتى دائرا فى شرح المتون وكتابة الحواشى ، ووضع التقارير ، فالمتن أصل يتفرع عليه ما يليه من حاشية وهامش ، لا يختلف ذلك فى علم من العلوم ، فانت تراه فى الفقة والنحو والاصول والمنطق والتوحيد ، وانت تسمعه كذلك فى حلقات الدروس اذ يدور الجدل حول المتن ، كنص مقدس ، تلتمس التأويلات الشاسعة الى ما يتطرق اليه من وهن فى لفظ ، أو خطأ فى تقرير قاعدة ، ثم تدور الحرب الجدلية حول هذه التأويلات ، من معارض يدحضها بالحجة الى مؤيد يدعمها بنص آخر ، أو تخريج محتمل !

على ذلك سارت حركة التأليف فى الازهر ، وفى غير ذلك سار العلامة الزبيدى فى دروسه بالمساجد ، وتأليفه فى الكتب ، وقد كان يدرس فقه اللغة ، وفصيح ثعلب ، وأدب الكاتب ، دون أن يلحقها بحواش وشروح ، كما أخرج معجمه الفذ (تاج العروس) نمطا فريدا فى عصره وموطنه ، وأدب مأدبة حافلة للعلماء حين أتم تأليفه قوبل بالثناء والاطراء !

أراد هذا العالم البحاثة أن يترجم لأعلام القرن الثامن عشر من العلماء والأمراء والوجهاء، فيصل ما انقطع مما قام به صاحب الضوء اللامع وصاحب خلاصة الأثر وصاحب سلك الدرر ، وغيرهم من أصحاب المراجع التاريخية ذات الدوى البعيد ، ولم تكن للزبيدى ــ كضيف نازح ــ خبرة واعية برجال مصر ، وأعلامها فى القرن الذى ينتوى الحديث عنه ، فتفرس خطاءه حتى اهتدى الى عبد الرحمن الجبرتى ، فكاشفه بدخيلة سره ، وأمره أن يشمر معه فى البحث عن آثار الماضين فيزور أصدقاء والده ، مسجلا أحاديثهم عن الرجال ، كما يدلف الى الصكوك والحجج فى مسجلات القضاء ، ويطابع النقوش فوق القبور وعلى المساجد والآثار ، ثم يتصل بأقارب المتفوقين من ذوى الجاه والنفوذ ،فيجمع من حياتهم ما تفرق ، ويضم من تاريخهم ما تناثر ، واذ ذاك يمكنه أن يقدم لاستاذه مددا حافلا من المعلومات ، والانباء !

وقد كان حديث الرجل غريبا عن عبد الرحمن فى بدئه فلما ضرب له المثل ، وناقش معه الفكرة ، ورسم له الطريقة ، وجد الشاب عقله وقلبه يتجهان اتجاها أكيدا الى كتابة التاريخ ، ودراسة حياة الرجل ، وأصبح التفكير فى ذلك شغله الشاغل ، وهمه المقيم ، وجاوز النظر الى العمل ، فاندفع يرى ويسأل ويستمع ثم يسجل معلوماته راجيا أن يقطع الليل المنسدل بين عينيه الى صباح مشرق يسعد باجتلائه فى شغف وارتياح !

لقد انصرف الشاب الى عمله الجديد انصرافا كاد ينقطع به عن التدريس فى الازهر ، فلم يعد يجتمع التلاميذ فى حلقته الا لماما ، وعكف على تسجيل الاخبار والحوادث يجمعها من المعمرين ، فأنشأ صداقات جديدة لأناس يعلمون من خوافى الأمور فى الماضى ما يضع فى يده الحقائق الكثيرة ! وأخذ يدون معلوماته فى صحائف متناثرة ، ثم يجمعها كما سطرها أول مرة دون تعديل ، ويبعث بها الى شيخه الزبيدى ، مرتاحا لجهده النشيط! وفى غمرة اجتهاده المرهق وافته الانباء المحزنة بوفاة استاذه الملهم ، فاضطرم عليه حزنا وأسفا ، وفكر فى مشروعه التاريخى • وقد أحدقت به نذر الفشل والتثبيط ، ولكن هواتف نفسه تنبعث فى ظلمات التردد مدوية مجلجلة فتدفعه الى الامل والكفاح ، ولا سيما بعد أن عثر فى بيت فقيدة الراحل على جميع مدوناته ومخطوطاته التى سبق أن أرسلها اليه ففرح بها فرحا زائدا ووجد فى محتوياتها سجلا رائعا لعهد تصرم وانقطع ، اذ دونت من حوادث المماليك ما كاد يغيب عن الاذهان من كل كبيرة صغر أمرها مع الزمن فلم تعد غير خاطرة تعبر ، أو ذكرى تحين ، وقد كانت فى ابانها كارثة مروعة ، ومأساة ذات أثر أليم !

على أنه انقطع عن البحث فترة تلمس بها الهدوء والاستجمام ، ولكنه انقطاع المشوق الآمل الذى ينتظر اقتطاف الثمرة فى حينها المتاح ! وقد يهتم الانسان بأمرها ، ثم يخيل اليه فى ظاهر أمره انه قطع صلته به ، وجنح الى شيء سواه ، ولكن عقله الباطن لا يعترف بظاهره الزائف ، فهو فى أطوائه البعيدة ، يجمع ويدخر ويحفظ ويكنز ، حتى اذا امتلأ وطابه بما حواه ، انتقض على صاحبه فأجبره فى غير هوادة على الاذعان التام الى أشواقه وميوله ، وقهره على تسهيل ما اكتنز وادخر ، وكذلك كان الجبرتى ! فقد خيل اليه أنه انصرف عن مدوناته .

وهو فى حقيقة أمره يرصد أحداث زمانه ، ويدخر مشاهداته وتجاربه ، وقد اتجه الى نوع آخر من التأليف ، فاختصر تذكرة داود الانطاكى فى الطب ، وتعرض الى نقد كتاب ألف ليلة وليلة ، بدافع لاشعورى من شغفه بالتاريخ اذ أن الكتاب فى جوهره تاريخ اختلط فيه الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة ! وقد ترك الجبرتى بهذا وذاك مخطوطاته السالفة ، لكن الى حين .

ومضت الايام فى سيرها الرتيب ، حتى حان وقت تدفقت فيه الجيوش الفرنسية فى حملتها الشهيرة على مصر ، وتحكم نابليون فى القاهرة بأسلحته وجنوده وعلمائه تحكما قلب المسرح السياسى قلبا مفاجئا ، فبعد أن كان المماليك يمثلون أدوارهم الفاجعة فى عبث واستهتار ، غدونا نجد الضباط الفرنسيين يقومون بأدوارهم الجديدة فى صرامة جازمة ، وتصميم أكيد ، ورجل كالجبرتى قام بتسجيل الحوادث ، وتقدير الرجال ، لا يسمح لقلمه أن يقف مكبلا فى دنيا تزحمها الكوارث ، وتفترسها الاهوال ، فترك مهاد الدعة والجمام ، وطفق يسجل ما يراه ، ويسأل عما وقع بعيدا عن عينيه وهو فى تدوينه يمحص الروايات ، ويزن الامور ، فيختار — قدر طاقته — ما يجده أقرب الى منطق الحوادث ، وأدنى لواقع الاحوال ، وقد تكاثرت لديه الوقائع ، ووجد من عبر لياليه وعظات دهره ما يقدم به للأجيال اللاحقة سجلا رائعا ، وكتابا حافلا ، وقد رأى بغريزته التاريخية أن يلتفت قليلا الى ما سجله عن الماضى ، فعكف على تبييض مخطوطاته من جديد ، لتكون صحيفة الامس مقاربة فى تسلسلها واطرادها ، ما يخطه فى صحيفة اليوم ، وقد أجمل المؤلف خطته فى سطور ننقلها بأسلوبه عن مقدمة كتابه اذ يقول :

« كنت سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك الى سوابق سمعتها ، من أفواه المشيخة تلقيتها ، فأحببت جمع شملها ، وتقييد شواردها ، فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والاعوام ، الى أمور شاهدناها ثم نسيناها

وتذكرناها ، ومنها الى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها ، وسنورد ان شاء الله ما ندركه من الوقائع بحسب الامكان ، والخلو من الموانع ، الى أن يأتى أمر الله ، وان مردنا الى الله ، ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق» .

هذا منهج الجبرتى ، فهو لم يقصد مجاملة أمير ، أو طاعة وزير ، ولم يداهن دولة بنفاق أو مدح أو ذم يتجافيان عن الأخلاق ، ونحن وقد قرأنا كتاب الرجل نجده قد تمسك بما عاهد عليه القراء ، فى مقدمة كتابه ، بل نجده صادف كثيرا من المحنت والارهاق فى سبيل هذا المسلك الصريح !

لقد تحدث الرجل فى جزأى كتابه (الاول والثانى) عن عهد المماليك فذكر فى دقة ما لمسه من أساليب المشاحنة والمنافسة بين الرؤساء والاتباع وألم المالما مسهبا بدسائس الامراء والصناجق ، وتكالبهم على المال والجاه ، وفصل مصارعهم الرهيبة ، وما جلبوه على مصر من محن ونكبات ، ووالى طعناته الدامية الى محمد جركس ومراد وعلى الكبير فبين كيف كان أتباعهم يأخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن، فاذا امتنع أحد التجار قتلوه ونهبوا متجره ، وشرح كيف كانوا يخطفون النساء والغلمان ويدخلون منازل الناس ثم لا ينصرفون حتى ينالوا الثياب والغلال والاموال ، وكيف تجرأ هؤلاء الأوغاد بتحريض أمرائهم ، على نهب مصوغات الذهب والفضة من الصاغة وغصب نفائس الحلى من صدور النساء فى الحمامات ، بعد التهجم عليهن هجوما آثما ينكره الاسلام وتأباه الاخلاق !

يا لله ، لقد تمخضت هذه الفترة الدامسة من عهد المماليك فى مصر عن أسوأ ما تتمخض عنه الايام البائسة ذات المحن الدامية ، والكوارث الشداد ! وقد حرص الجبرتى على رسم مناظرها القانية دون المجاملة الزائفة الى السكوت عن قوم تربطهم بوالده تارة، وبنفسه أخرى روابط الصداقة والضرورة ، فقد كان على الكبير ومحمد أبو الذهب وغيرهما من الامراء على صلة طيبة بأسرة المؤرخ ، وعلائق المودة كانت وما تزال مراد التجاوز والاغضاء ، الا عند من يرصدون أنفسهم لتمحيص الحق الجرىء بعيدا عما يكتنفه من ملابسات ذاتية ، والجبرتى ـ بلا ريب ـ فى طليعة هؤلاء !

وحين نسجل للرجل انصافه الدقيق للمماليك ، لا نجد مناصا من تسجيل انصافه الصادق لأعضاء الحملة الفرنسية ، اذ أن الخلق العريق يطبع صاحبه بطابعه فلا يميل به الى بخس أو تطفيف مهما اختلفت السلعة فى الكفة رخصا وغلاء، وكان الظن بعبد الرحمن أن يقصر حديثه على تصوير الكوارث المتلاحقة التى جلبها الاجنبى الدخيل على قوم مسالمين فيميل بالرصد الى ما ارتكبه الغزاة من تدمير ونسف وتقتيل، وما فرضه المحتلون من ضرائب فادحة تثقل الكواهل وتقصم الظهور ، وما أمطروا به المساجد

والمنازل والاسواق من قنابل وصواعق بعثت الموت والهول فى النفوس ، وما انتهكوا به الحرمات المقدسات ، اذ هجمت الخيول على أماكن العبادة ، وحلقات العلم ، تلطخها بقاذوراتها الدنسة ، وتزعجها بصهيلها المنكر ، وفوارسها المناكيد فوق ظهورها المسرجة يشربون الخمور امعانا فى الكيد ، ومبالغة فى التبجح والاستهتار أجل ! كان الظن به أن يقتصر على تسجيل هذه الفضائح المخزية دون أن يسمح من زاويته الخاصة موضعا لتقدير واعجاب ولكن الانصاف يفرض عليه أن يعترف للقوم بأنهم بذلوا جهد الطاقة فى مجاملة المصريين وتحسين أحوال البلاد ، فوزعوا الصدقات ، واحترموا المواسم الدينية ومنعوا دفن الموتى فى المقابر القريبة ، ورجعوا الى كثير من رجال مصر بالمشورة ذات الاصغاء والتنفيذ ، وما اضطرهم الى ما وقعوا فيه من العسف ، غير ما لسوه من التجمع فالتحرش فالاستفزاز ، وقد أطنب الجبرتى فى وصف الروح العلمية التى أذكتها الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى ، اذ وصف مكتبة المجمع الفرنسى وألم بتفصيل ما شاهده من علماء الحملة فى تجاربهم الكيميائية ، مما كان موضع اندهاش الازهريين من العلماء ، ولنترك الرجل يتحدث بذلك فى فقرات نقتطعها من كتابه بأسلوبه ، لتكون أبلغ فى الدلالة على دقته وانصافه من ناحية ، وعلى دهشته وتحيره أمام معجزات العلم من ناحية ثانية ٠

قال الجبرتى : « وفى بيت حسن كاشف جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها، ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من «العساكر» ، واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لايمنعونه الى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك، واظهار السرور بمجيئه ولا سيما اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر والمعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم وقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك » ٠

ثم يقول الكاتب فى وصف بعض التجارب العلمية « ومن أغرب ما شاهدته أن بعض المتقيدين أخذ زجاجة بها ماء ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فغلا الماءان، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف مافى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا ، أخذناه بأيدينا ولمسناه ، ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ، وأخذ مرة شيئا دقيقا من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمنطقة فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منا وضحكوا منا ، وهكذا نجد تاريخ الحملة الفرنسية مسطورا بخيره وشره وأنت تتلمسه واضحا فيما كتب الجبرتى ، وقد حفظ التاريخ لنا كتابا آخر عن الحملة سطره « نقولا الترك » والفرق ما بين الازهرى المصرى والمسيحى اللبنانى واضح!! فالاول مع تسطيره جميع مايعلم عن الفرنسيين

قد اهتم بحوادث الشعب فى كتابته اهتماما لم تفته الدقة والانتباه ، والثانى قد سجل ما لمسه عند رجال الحملة الفرنسية والجاليات الاجنبية الاخرى بحكم اتصاله الوثيق بأولئك وهؤلاء ، دون أن يتوسع فى تشخيص التيارات المتجاذبة فى طوائف الشعب المصرى ، وقد أخذ بعض الناقدين على الجبرتى أنه هرب من القاهرة الى الغربية عند قدوم الحملة الفرنسية ، فلم ير اذ ذاك ما يسجله عن الحملة الاسماعا ومناقلة دون مشاهدة ومعاينة، وليس الخبر كالعيان ، وفات هذا الناقد أن سفر الجبرتى حينئذ لم يتجاوز عشرة أيام رجع بعدها الى القاهرة ، وهى مدة ذات حوادث بارزة لا يمكن أن تمر دون أن يتحدث الناس شهورا طويلة ، فاذا سمع الرجل وكتب فانما يتحرى الواقع فى أهله ، والصدق عن ذويه ، وهو لذلك يقول : « ولا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الامور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف » .

مضى الفرنسيون فانقضى برحيلهم عهد باد وتصرم ، واستقبلت مصر عهدا آخر سيطر فيه محمد على على الدولة بعد قلاقل ثائرة أدت الى مبايعته. وقد بدأت متاعب الجبرتى — بهذا العهد الجديد — تزداد وتتهجم ، فالمؤرخ المنصف كان فى ماضيه يقول الحق دون أن تتبعه الارصاد والعيون ، أما الآن فقد تعذر عليه أن يجد متنفسا لقلمه فى أمد تتحكم به الفردية الطاغية تحكما قاهرا ، ولو أغمض عينيه قليلا لخان رسالته وهاجت عليه نوازعه بالتأنيب والتقريع ، ماذا عسى أن يصنع ؟ لقد صمم على أن يجتاز طريقه الوعر مهما امتلأ بالاشواك والصخور !! ومهما تعرض الى مهاو سحيقة يكتنفها الويل والثبور !! وبدأ الرجل يسير ، فاعترف أولا — جريا وراء انصافه الدقيق — بما قام به محمد على من أعمال هامة فى استعمار الاراضى البور ، وانشاء المصانع واعداد السفن وتشجيع وسائل التجارة بين مصر وغيرها من الاقطار . واستحضار آلات النسيج الحديثة حتى قال فى التعقيب على بعض أعماله « هذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق بمثلها » ولكن هذه الحسنات لا يمكن أن تتجرد عما اكتنفها من سيئات ثقال ، فمن المحتم الاكيد عليه كمصور صادق أن ينقد موجة الاغتيال التى غمرت الشعب تنفيذا لسياسة ارهابى جرىء !

كما أن واجب المؤرخ ألا يغفل الحديث عن اشتعال الغلاء اشتعالا كاد يسلم الشعب الى مجاعة دهياء ، وكان أليما أن يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم ، وطائفة من أفاضل العلماء والاعيان ، وقد جعل من مصادرة الاموال سيلا ينحدر دافقا الى خزائنه ، مما ضيق الخناق على أصحاب المتاجر والمصانع ، فأخذوا يتنفسون فى جو خانق كريه، وجنود الباشا المسلحون يجددون مآسى الفرنسيين فينتهكون الحرمات

ويتباهون بالمعاصي ، ويعبثون بالمناجر والاسواق ، بل ان نجل الباشا ابراهيم يقتدى بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبا رهيبا سجله الكاتب حين قال « ثم سافر ابراهيم راجعا الى الصعيد ، ليتم ما بقى عليه لأهله من العذاب الشديد ، فقد فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالاقطار، وأذل أعزة أهلها ، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاما ، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه ، لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ، ولا مأمورات ، ولا منهيات » .

انها الجرأة الصادقة تدفع الرجل الى تأنيب القساة الطغاة ولو تضافرت الاقلام على انصاف الحق، ماوجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض فى الشهوات دون أن يسمع غير الاطراء الكاذب ، والرياء المقيت . وقد كان الجبرتى جريئا ، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب ، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازى الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفائظ ويلهب الصدور، فى وقت وجد به أناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة ! وجلائل حافلة لا تتعلق بها الآمال وخيال الباطل فسيح مديد .

ذاع نقد الجبرتى ، وتناقل الناس ما سطره عن محمد على وابراهيم ، ثم عن أشياعهما من الاصهار المتجبرين ، كمحمد الدفتردار وسليمان أغا السلحدار وكلاهما كان طاغوتا رهيبا لا يذر من شيء يأتى عليه ، بل طالما استمد من سلطان الوالى رهبة قاتلة ، تذل النفوس وتلجم الافواه ! فما الذى يكافأ به الجبرتى ازاء صراحته فى عالم تهون لديه الارواح الانسانية هوانا يلحقها بالحشرات والهوام !

ان النتيجة الرهيبة متوقعة محتومه . فلا يعقل أن تنكمش الاحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بقوة أو ترهب بنفوذ . ولا ريب أن المؤرخ كان يعلم تمام المعرفة فى أى طريق يسير ! والى أى مهوى ينحدر ! وهنا موطن الاسوة ، ومجال العبرة ! هنا مكمن العظمة فى أفذاذ أماثل ، يقدمون أرواحهم قربانا للعدالة والانصاف ، وينصبون أقدامهم مثلا حيا للبطولة والفداء ! ولو لم تكن للجبرتى هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف من الافراد : يجامل الطغيان ويتملق العدوان ، ويقضى حياة ذليلة ضارعة تنتهى به الى موت آسف لهيف ، ويمر مماته الهين مرورا ساكنا شاحبا ، فما بكت عليه أرض وما تفتحت لاستقباله سماء !

أما كيف تمت المأساة فقد اختلف فيها الكتاب اختلافا لا ترى داعيا له اذا تأملنا منطق الحوادث ، وقارنا الاشباه بالنظائر ، فهناك روايتان متباعدتان ، رواية تقول : ان حكم الاعدام قد نفذ فى المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال فى طريق موحش بهيم ، بتحريض من محمد على ، وتنفيذ من سليمان أغا السلحدار .

ورواية تقول : ان الاغتيال قد وجه الى خليل الجبرتي نجل المؤرخ فتفجع والده عليه ، وكف ما بقي من بصره حتى لحق بولده بعد أيام !! وقد ذكر الرواية الاولى أكثر المصادر الاجنبية وفي مقدمتها دائرة المعارف الاسلامية ، وأيدها الاستاذ أحمد حافظ عوض في خاتمة كتابه القيم عن تاريخ مصر الحديثة ، وهو في رأينا أقرب الروايتين الى المنطق ، اذ أن محمد علي قد اعتاد أن يتوجه بشره الناقم الى أعدائه المباشرين والاب هدف أصيل يجب أن يتوجه السهم اليه ، كيلا يظل عاكفا على تسويد صحائفه ، بما يذيع ويشتهر في دنيا صاخبة ، تتناقل المثالب تناقلا طائرا ، لا يقف في مكان أو ينتهي عند غاية ولا سيما اذا كان تنفيسا عن صدور مكروبة، وقلوب ممتلئةفهي تقضي وطرا عاما من أوطارها، بقراءة صحائفالجبرتي وترى في نقده أنشودة ساحرة تهدأ لها الخواطر، وتجذب نحوها الاسماع! وان طاغية كمحمد علي يبطش بأعدائه المماليك ، على كثرتهم الكاثرة في ساعة واحدة لهين عليه جداأن يتخلص من يراع صادق يدونمثالبهوينشر مساويه في غير تحفظ واكتراث ، ولماذا يترك محمد علي في حياته أمدا فسيحا تنفجر به براكين سخطه متأثرا ابنه الفقيد ـ لو صحت هذه الرواية ـ فيواصل هجومه الثائر عن قلبموتور وصدر ملتهب وكبد ذات تباريح !

ان اغتيال الجبرتي نفسه هوالحل الطبيعي الذي يتجه اليه عقلغاضب متجبر كعقل محمد علي دون أن يتطرق الى اغتيال سواه مهما عزت مكانته، واشتدت آصرته ، وعظمت حرمته لدى المؤرخ الدقيق ، على أن الذين يلحقون الكارثة بنجل الرجل ، يجمعون على أن والده فقد صوابه ، اذ داهمه الخبر الفاجع وانتفضت عليه علله وأوجاعه وكف بصره فما يستطيع أن يخط حرفا ، وأحاطت به النذر الغاشية من تهديد الوالي ووعيده ، فأخذ يترقب مصرعه بين آونة وآونة وقضى أياما حائرة مضطربة ، أهون منها السكون الابدي في حفرة آمنة عزلاء لا يدب اليها كيد ، أو تنصب حولها فخاخ . مهما كان من اختلاف الروايتين ، وتباعدهما تباعدا تفترق نتيجته ، فقد نزل الشر بالرجل نزولا عاصفا، ثم ودع الحياة توديعا مريرا، دونأن يجد من معارفه من يزفر عليه زفرةرثاء، أويسكبفوقضريحهعبرة أسفة، فقد بدد الارهاب الخانق وفاء الأصدقاء وعصف بولاء المخلصين !! الا ما كان من همس الشفاه وتساؤل النظرات ! وامتد وراء الراحل العزيز ليل حالك دامس تكشفت غياهبه القاتمة عن فجر يومض ثم عن صبح يشرق وينير ، فاذا الرجل بطل خالد . ومثل يحتذى ، وذكرى تتعطر بها الاجيال !! والعاقبة للمتقين .

جمال الدين الأفغاني باعث الشرق

يقول المتنبى :

يقولون لى ماأنت فى كل بلدة وماتبتغى؟ ماأبتغى جل أن يسمى

لعل هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغانى . فقد كان ذا أمل كبير يدفعه الى التنقل فى شتى الممالك القاصية لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجة والانتعاش، بل ليقيم فى كل أرض ثورة . ويشعل فى كل ممسكة ضراما ، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية، ويقيم على أنقاضه صروحا عالية من العزة والاستقلال وان رجلا واحدا يمكنه أن يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية لجدير أن يكون رنان الصوت طائر الصيت !!

لقد نشأ جمال الدين فى عهد يائس حزين ، كانت فيه الممالك الاسلامية جميعها دون استثناء أشبه بالمريض المنهوك الذى سرى الداء فى كل عضو من أعضاء جسمه ، فالتأخر والجمود والاحتلال تجثم بقيودها الثقيلة على كل دولة . ومن فاتها الاحتلال الظاهرى بالعسكر والجيش فان الاحتلال المعنوى يطبق عليها بقيود مستترة ، تحس ثقلها الحديدى دون أن تراه العين ، وقد طغت الدول الاستعمارية بما ملكت من القوة والعلم طغيانا مكنها من الشر والبغى والاستغلال ، وليتها اقتصرت على ما تعتصره من الارزاق وتستنزفه من الخيرات . بل اتجهت بمعاولها الهادمة الى الدين الاسلامى تصمه بالرجعية والتزمت والضيق وتنسب الى تعاليمه أسباب التأخر والانحطاط ثم تعرض مفاتن أوربا وما ابتدعته فى عصور النهضة من فنون ، وما وصل اليه العلم العصرى من مستحدثات ، متخذة من ذلك كله دلائل ساطعة على انحطاط المسلمين بوقوفهم عند دينهم البدوى المتأخر كما يتصور هؤلاء ! وكان الجهل المطبق يدفع الكثير من المسلمين الى القنوط واليأس ويشككهم فى القيمة الحقيقية للشريعة الاسلامية وبقائها الحى على تناسل الاحقاب حتى وجد جمال الدين ، فدرس عصره وألم بمعضلات العالم الاسلامى ورأى أن الدين براء مما ينسب اليه ، وأن المسلمين لم يتقهقروا فى مضمار الحضارة والعلم الا لأنهم تركوا الدين وراءهم ظهريا فظلموه ظلما فادحا حين انتسبوا اليه بالقول ثم خالفوا جميع أوامره ونواهيه ، فحقت عليهم كلمة الله !!

ولو لم يكن جمال الدين من طراز نادر ممتاز لتسرب اليه اليأس فى ظلمات هذا الليل الحالك . ولكن شعاع الايمان فى قلبه قد انتشر وهاجا ساطعا ، فأخذ يشق له الطريق فى لجج هذا الظلام البهيم وصمم على الجهاد العنيف ليحيى الميت . ويخصب المحل الجديب .

ومن هنا كان تنقله الحثيث فى كل دولة ورحلاته المستمرة فى كل أرض ، فما يبتغيه أجل من أن يسمى ، وأبعد من أن يتطاول اليه انسان سواه !

فهو مثلا فى بلاد الافغان موطن آبائه وأول أرض تنسم بها ريح الحياة . قد رأى الخلاف الداخلى يمزقها شيعا وأحزابا ، ورأى الاستعمار يزيد من حدة هذا الخلاف حتى صار الامراء فى حرب لاتنقطع . لكل أمير جيش وأعوان يتصارعون مع اخوانهم المواطنين . فيدفعون البلاد الى الدمار الحاصد والفناء المبيد . فرأى على حداثة سنه أن يدخل المعترك السياسى ، وأن ينضم بعزيمته وعقله وايمانه الى من يعتقد فيه الصلاح والخير للاسلام ، فرجحت الكفة به ، وسالمه الدهر حينا ، ولكن الدسائس الاستعمارية لا تسكت عن محاربة الاصلاح ، فألقت بكيدها وسلاحها ومالها الى الميدان حتى تغلب الباطل ، ولاذ جمال الدين بالفرار الى الهند !!

ولم تكن الهند غريبة عن الرجل ، فقد تعلم بها فى صباه ودرس ظروفها السياسية والاجتماعية فعرف أن الاستعمار الانجليزى يرهقها بطغيانه الرهيب . ومن ثم فقد أخذ ينشر بين الهنود دعوته الى الخلاص والاستقلال وتتبع أساليب الاستعمار ليفضح مساويها الشائنة . وينزع الثياب عما تضمره من فضائح ومخزيات . وكان طبيعيا أن يضيق به المستعمرون فيجبروه جبرا قاهرا على مغادرة البلاد . والرجل لا يستسلم ولا يستكين بل يلتفت الى المندوب الانجليزى ليقول له فى كبرياء « ان تخوف حكومة بريطانيا من زائر أعزل مثلى يسجل عليها وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها ، وعدم أمنها ، وأنها فى حقيقة حكمها لهذه الاقطار اضعف بكثير من شعوبها » .

وينظر جمال الدين فيرى المندوب الانجليزى ينكسر ويتضاءل ويلمح الدموع تترقرق فى عيون الآلاف من مودعيه ممن آمنوا بمبادئه ، واستيقظوا على صيحته . فلا يلجأ الى مجاملتهم فى هذا الموقف العاطفى الحزين ، بل ينفجر كالبركان صائحا فيمن حوله ملهبا شعورهم الهامد اذ يقول : « يأهل الهند ، وعزة الحق . وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذبابا ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين وقد مسخكم الله وجعل كلا منكم

سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها الى القمر وعدتم الى بلدكم أحرارا »

ثم رحل الرجل الى مصر تاركا وراء كل حرف من هذه الحروف جمرة تشتعل ، ولهيبا يتطاير ليلتهم أوكار البغى والاستبداد !

الى أين يمضى هذا الشجاع الصنديد ؟

لقد اتجه الى مصر ليصل رسالته فى البعث والايقاظ . وقد زارها مرتين . فعرف وجوهها وأحوالها واتصل بأزهرها الاسلامى ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ولم تكن الأحوال فى مصر بأحسن منها فى الهند. فقد استدان اسماعيل وبالغ فى القرض والتبذير حتى جر الاستعمار الى وطنه . وقد ألف الناس الاستكانة والانصياع ، فأخذ يفتح العيون على ما يجرى فى البلاد من أهوال . ويتصدر المجالس ليعلن آراءه فى الحكم وبرامجه فى الاصلاح . ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم الى الكتابة فى الصحف ليصوروا الفساد الداخلى . ويفضحوا الطغيان الخارجى . ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، واقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ . يحاسب على التبذير والرشوة . ويحد من الفردية الدكتاتورية فى الحكم والسلطان . وقد عزل اسماعيل فى هذه الظروف التى خلقتها مآسيه المتلاحقة ، وجاء ولده توفيق وكان ذا صلة بجمال الدين فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثيره ــ وأراد أن يلاطفه ليرجع عن مبادئه فى الحرية والاستقلال وهما منه أن الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء. وكان أن هيأ اجتماعا عاجلا فى القصر الخديوى بدأه توفيق فقال مداهنا مراوغا : انى أحب كل خير للمصريين . ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة .

فاعتدل جمال الدين فى مجلسه ثم رفع رأسه ليقول فى اعتداد : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول له : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » .

وانتهى اللقاء بعد أن لمس توفيق خيبة مسعاه !

لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة ان أيامه فى مصر محدودة فانبعث يشعل اللهب بخطبه وأفكاره . وكانت به حدة قاسية تلجئه الى العنف الصريح دون مواربة ، فأنشأ محفلا ماسونيا جديدا بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين «وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبا للأعمال المختلفة: فشعبة للحقانية ، وأخرى للمالية وثالثة للاشغال ورابعة للجهادية وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شئون وزارتها ومصلحتها وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الاصلاح فيها . ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح فكان لذلك هزة فى الأندية والمجتمعات » (١) .

وصاحب ثورة كهذه الثورة لا بد أن يحارب بعنف ، فقد تعاون الاستعمار الخارجى والطغيان الداخلى على ابعاده فغادر مصر ولكن بعد أن أعد الوقد وأشعل الثقاب !!

يئس الفيلسوف من متابعة الاصلاح فى بلاد الشرق فرأى أن يتجه الى الغرب ليجد من الحرية فى صحفه وانديته ما يكفل لآرائه الذيوع ، وجعل يتنقل ما بين روسيا وانجلترا وفرنسا متخذا من صحافتها المنتشرة ميدانا لافكاره الجريئة فى مناوأة الاحتلال ، وتذكر تلميذه الوفى محمد عبده فدعاه من بيروت الى باريس ليصدرا معا جريدة العروة الوثقى . فكان لها على قصر مدتها الوجيزة من الدوى والصليل ما أرهب الاستعمار ، فتحالف على مناوراتها وحارب انتشارها محاربة قاهرة . واخذ يترصد اعدادها فى مختلف مصارف البريد ليصادر ما يتجه الى الشرق فى حقد واضطغان ، ومع هذا الخطر العارم فقد تسللت الى أيدى الكثيرين ردحا من الزمن . ثم اضطرت الى الوقوف بعد نضال حميد!

وقد شاءت انجلترا أن تمسكت الرجل بأسلوبها الخاص ، فهى تعلم ان القمع لا يجدى معه فى شىء اذ ينتقل الدوار من أفق الى أفق دون تعويق ، فرأت أن تستميله بالمنصب الخطير ليكون لها من وراء هذه الشخصية الفذة ساعدا قويا يمكن لها من النفوذ والاستعلاء . وكانت ثورة المهدى بالسودان اذ ذاك قد بلغت قمتها العالية وعجز الأسد البريطانى عن مواجهتها بأسلحته وعتاده فرأى أن يبعث بجمال الدين الأفغانى الى السودان ملكا رسميا تلتف حوله الجموع ، ليستطيع بمكانته وعلمه أن يجمع حوله المسلمين قاطبة ، فتخبو نار الثورة ؛ ويصبح السودان لقمة سائغة فى فم انجلترا . يقدمها السيد الأفغانى

---

(١) من كتاب زعماء الاصلاح نقلا عن محمد المخزومى باشا .

لها طواعية ، أى وهم قد تمكن فى نفس المستر سالسبرى رئيس وزراء انجلترا اذ ذاك قصور له أن جمال الدين دمية فى يده يرمى بها كيف يشاء.

لقد ظنه انسانا مريضا يحب الجاه والمنصب كأكثر من يرى ويعامل من الناس ولكنه بوغت منه بداهية عنيد نظر اليه نظرة صاعقة، ثم صاح فى وجهه بكبرياء وعظمة : هذا تكليف غريب ، وسفه فى السياسة ما بعده من سفه ، هل تملكون السودان حتى تتوجوا عليه ملكا يخضع لارادتكم كما تشاءون ، ان مصر للمصريين والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق الخليفة الأعظم حى يرزق ، ولديه من الجيش المادى والمعنوى مايذلل معهما كل صعب فى الكون الاسلامى وأجزاء ممالكه، .

ولم ينتظر أن يطول النقاش ، بل أنهى المقابلة سريعا وخرج من دار رياسة الوزراء فى لندن ليتوجه الى باريس من جديد !

على انه لم ينس فى مضمار السياسة أن يحمل القلم فى مجال التأليف والنقد فكتب رسالة طويلة فى تفنيد نظرية الارتقاء والتطور سمى اصحابها بالدهريين كما يسمون فى كتب النحل الاسلامية من قديم، ونظر فى الصحف الباريسية فرأى الفيلسوف الفرنسى « رينان » يشن حربا طاحنة على الاسلام فأخذ يهرف بما لا يعرف ، وينسب الى تعاليمه من الجمود والتزمت ما هو بعيد عنها بعد الارض عن السماء ، فحمل جمال الدين يراعه القوى ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وطارت ردود السيد كل مطار فقراها رينان فى دقة وعقب عليها بما ينبىء عن تراجعه حينا وتخبطه حينا آخر . وعرف الأوربيون عن طريق هذه المناظرة الجهيرة كثيرا من الحقائق الاسلامية الصريحة رائعة باهرة بعد ان ملأ المستشرقون أذهانهم بالفاسد من الآراء عن عمد أثيم . وما كاد المسيو هانوتو بعد ذلك بأعوام يعيد الكرة الظالمة فى حرب الاسلام حتى انبرى له تلميذ جمال الدين الشيخ محمد عبده ، فبلغ مبلغ استاذه من التوفيق والسداد ، وهكذا يجد الحق نصيره فى كل زمان ومكان!

وبعد فهل ارتاح السيد فى تجواله الناعب فى الشرق والغرب لايقاظ الشعور الدينى ، وبعث العملاق النائم من سباته العميق ! هيهات هيهات . فقد تعرف بشاه ايران وعاهل الفرس فى بعض جولاته الأوربية، ورأى الشاه فى جمال الدين طرازا رائعا من العلماء . فصمم على أن يصحبه الى مملكته الفارسية ليكون مستشاره الناصح فى ادارة البلاد. وانبعثت فى نفس السيد آمال كبيرة تتجه الى الاصلاح والبعث فصارح الشاه بوجوب انشاء حكم دستورى نيابى ، وجمع حوله من رجال فارس من اقتنعوا بمذهبه فى الاصلاح ممن ينقمون على الحكم الفردى فظاعته واستبداده ، ونظر الشاه فاذا مستشاره الناصح ينادى بآراء

تقيد من طغيانه الفردى فواجهه باللوم وثبت السيد عند رأيه فناقش وافحم . ومضت شهور قلائل تحرج بها الموقف بين الرجلين تحرجا زاد من هوته اقبال الفارسيين على جمال الدين والتفافهم حول مبادئه الدستورية ، فلم ير الشاه مناصا من القبض عليه فى أثناءمرضهالعارض ثم رمى به خارج حدود بلاده ليجد المريض المحموم نفسه فى العراء تحت سياط البرد والثلج والشتاء !!

لا بأس ! فالشدائد تهون لدى أصحاب الآمال البعيدة والمطامح العالية من الرجال ، وقد هان على السيد ما يلقى من الناس ! فلم تفتر له عزيمة واتجه الى الآستانة موطن الحكومة العثمانية ومربض عبدالحميد السلطان ! وكان فى الخليفة دهاء وحيلة ، فأدرك ما يعتمل فى نفس المصلح الكبير ، وعلم من واقع رحلاته وسجل أعماله آماله المخلصة فى اقامة دستور عادل يطيح بحكم الفرد . فلم يشأ أن يأخذه بالعنف القاهر ، فيؤلب عليه أتباعه الكثيرين فى شتى ممالك الاسلام بل قابله مقابلة الصديق الشفيق وقرر له راتبا ، وأفرد قصرا لاقامته، ثم عرض عليه منصبا دينيا خطيرا ، ولكن السيد لا ينشد راحته الشخصية حتى يقنع بما أعد له من نعيم ، فطلب مقابلة الخليفة على انفراد وصارحه فى اعتداد بأن الحكم الفردى يحتاج الى تغيير جوهرى وأن الشورى يجب أن تكون أساس هذا الحكم كما هو معروف فى الدول الاوربية ذات القوة والحضارة والازدهار ...

وكظم عبد الحميد غيظه حتى انتقل جمال الدين من مجلسه فأرسل كبير الياوران ليقول له فى كثير من العتاب « ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل . واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة فى حضرته »

فرد جمال الدين محتدا « سبحان الله ! ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ولا يعترضه منهم أحد ! أفلا يكون لجمال الدين الأفغانى حق أن يلعب بسبحته كما يشاء » !

واعجبا لو كنا بصدد دراسة نفسية تحليلية لمواقف السيد ، لرأينا فى أمثال هذه الردود المفحمة ما يكشف القناع عن عظمته العالية وكبريائه الرفيعة على الجبابرة والطغاة . ولكن طبيعة هذا البحث تعجلنا عن كل ذلك ، فنطوى الكلام طيا ، لنذكر فى اقتضاب أن المقام لم يطب للرجل فى الآستانة ، وكان المرض قد أناخ على جسمه بكلكله فرماه السرطان بداء لا منجاة منه ، وودع الحياة قانعا بما أيقظ من همم واقام من ثورات وأحيا من موات ، فتزلزل العالم الاسلامى لرحيله .

وتطلعت العيون في حسرة الى الكوكب الهاوي متسائلة عن صوته اللامع في حوالك الأزمات .

رمى السرطان الليث والليث صادر
ورب ضعيف نافذ الرميات

وشاعت تعازى الشهب بالسمح بينها
عن النير الهادى الى الفلوات

عبدالمجيد سليم بقية السلف الصالح

اكتمل لامام أهل السنة المغفور له الاستاذ الاكبر الشيخ عبدالمجيد سليم (١) من جلال العلم وعظمة الحق وقوة الايمان مالم يكتمل لسواه من النظراء والأمثال ، فقد كان رضى الله عنه من أخلاقه المثالية فى هيبة منيعة ، يصغر دونها أعظم الرؤساء من ملوك ووزراء ! فلا يحاولون أن يصارحوه بما لا يرضى المؤمن المتحرز ، والعالم العيوف . وقد جاءت سيرته الطاهرة كتابا مفصلا للرجولة العالية ، يقرؤه الناس فيجدون المثل الاعلى قد تجسم واقعا ملموسا فى أعمال الرجل وأقواله . واذا كان من السلف الصالح من شابه الشيخ فى ابائه وترفعه فان معاصرتنا الشاهدة لحقيقته المؤمنة فى القرن العشرين تؤكد لنا أن مصباح الحق دائم الاشعاع ، فهو ينتقل من العصور الغابرة الى العهود الحاضرة دون أن يطفأ له ضياء ، ويأبى الله الا أن يتم نوره !

ولو اردت أن ترجع جميع مواقف الشيخ الى سبب واحد ، ترتكز عليه أفعاله وتصدر عنه أقواله ، ويكون مفتاح شخصيته الذى تدرك به أسرارها الكامنة ومواهبها المدخرة لوجدت هذا السبب ينحصر فى شىء واحد لا لبس فيه ولا غموض ! انه الثقة بالله وحده تسيطر على نفسه فيهون دونه كل جليل يكبره الناس !

لقد وثق بالله حين أقبل على العلم اقبالا مخلصا ، فمنحه ذات نفسه وتفرغ عن رغبة أكيدة لاقتناص شوارده ، واكتناه غوامضه ، ولم يقبل فى عهد التلمذة أن يقتصر على علوم الأزهر وحدها بل جمع اليها المنطق والفلسفة حتى عرف بين زملائه بابن سينا . وقد اختار من أساتذته فى حلقات الأزهر من آنس فيه البراعة والاستيعاب ، فهو يحضر دروس الاستاذ الامام محمد عبده فى الرواق العباسى لمدة خمس سنوات فيدرس عليه كتب عبد القاهر فى البلاغة حينا وتفسير كتاب الله حينا آخر ، وهو يتلقى شروح المنطق والفلسفة عن أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلم بأفانين من الجدل والقياس لم تكن مألوفة للداته من الطلاب ، ثم هو يجد فى استاذه الشيخ أحمد ابى خطوة موردا دافقا فى

---

(١) انتقل الى رحمة الله فى ١٠ من صفر ١٣٧٤ هـ .

الفقه الاسلامى فيأخذ عنه التبحر فى المسائل الفرعية والتعمق فى الفتاوى الفقهية . ويشهد له بالاطلاع الشامل والصبر الطويل بل انه يقارن غير مرة بين أبى خطوة والاستاذ الامام فيجد الأول أكثر الماما بمسائل الفقه وأدلة الأحكام غير ان الامام فى رأى الشيخ يمتاز بسعة الأفق وسلامة التعليل وامتداد الصيت ! هذا الى بيان مشرق يجذب اليه الناس فيصبح أقدر العلماء على الافادة والتوجيه .

وقد شاء القدر أن يكون الاستاذ خليفة الامام فى الافتاء فعالج فى فتاواه الكثيرة معضلات العصر وقضايا المدنية الحديثة كما عالجها الامام فى فقه بصير وفهم مستنير . وقد تحدث رحمه الله فى بعض أعداد مجلة الرسالة عن منهج أستاذه فى الفتوى ومنهجه الخاص الذى يحتذيه فقال نقلا عن العدد الممتاز (٤٤٩) :

« ان الناحية التى تجلت فيها مواهب الأستاذ الامام : هى ادراكه الصحيح لمعانى القرآن الكريم ، وفهمه الدقيق لأغراضه ، وتذوقه لأسلوبه ومعجز بيانه . مع بصر عظيم بأحوال الناس وعبر التاريخ ، وأسرار تقدم الأمم والشعوب . يؤزر ذلك قلب جرىء وعقل متصرف .

وكان يعتمد فى فتاواه على ادراك روح الشريعة ، وتبين اغراضها العامة ، لا على مناقشة المذاهب وترجيح آراء الفقهاء . ولذلك تأتى فتاواه غالبا مختصرة . وقد تثير خلافا بين أهل العلم . ومن أمثلة ذلك انه افتى فتواه المشهورة بجواز لبس البرنيطة . فقامت من أجلها ضجة هائلة . فلما أردت أن افتى فى الموضوع ، انتفعت بموضع العبرة فيه ؛ فأخرجت فتواى التى تجيز ذلك اخراجا فقهيا مؤيدا بأقوال العلماء ، جاريا على طريقتهم فى الاستدلال والترجيح . فلم يستطع أحد أن يشغب على » .

واذا كان الاستاذ الامام لم يتقيد بمذهب معين فى فتواه ، فان خليفته الأستاذ عبدالمجيد قد ورث عنه هذه السعة الفسيحة فى قبول الآراء المختلفة ما دامت مؤيدة بالدليل ، فأنحى باللائمة على من يعتصمون بقول خاص لا يحيدون عنه . بل ان أثره كان قويا ملموسا فى جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، وهى التى تنص المادة الثانية من قانونها على « العمل على جمع أرباب المذاهب الدينية الذين باعدت بينهم آراء لاتمس العقائد التى يجب الايمان بها . مع السعى الى ازالة ما يكون من نزاع بين شعبتين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما » .

فقد كان رضى الله عنه وكيل الجماعة فاكسبها جلالا ومقاما ، وجذب اليها الصفوة من اتباعه ومريديه ، وقد تحدث فى أول عدد من مجلتها « رسالة الاسلام » فقال :

« ولقد أدركنا فى الأزهر على أيام طلبنا للعلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد وتطهر الأزهر من أوبائه وأوضاره . فأصبحنا نرى من العلماء من يخالف مذهبه الذى درج عليه فى أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه، وقد جريت ـ طول مدة اقامتى بالافتاء فى الحكومة والازهر وهى أكثر من عشرين عاما ـ على تلقى المذاهب بالقبول ، ما دام دليلها عندى واضحا، وبرهانها لدى راجحا » .

ولا نجد خدمة توجه الى الفقه الاسلامى أجل من جمع فتاوى الشيخ وقد بلغت أكثر من خمسة عشر ألف فتوى فى مجلد خاص . يكون مرجعا متداولا بين الفقهاء والدارسين وتلك رغبة ملحة طالب بها الكثيرون .. ولعلها تجد طريق التنفيذ ، ليلمس الباحثون أمامهم رأى الاسلام الصحيح فى مشكلات العصر ومعضلات المدنية والحضارة مؤيدا بالقياس والدليل .

وقد اعترف أساطين الفقه وأساتذة القانون بما لآراء الشيخ من قوة وسداد ، فقد كان مرجع الأفذاذ الاعلام من ذوى التشريع يسألون فيجيب ، ويترددون فيجزم، حتى أن اللجنة التى ألفت للأحوال الشخصية فى وزارة العدل برياسة الأستاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى وعضوية شيوخ المذاهب بالأزهر وأساتذة الشريعة بالحقوق ورئيس المحكمة الشرعية العليا ووكيلى وزارتى العدل والمعارف ! هذه اللجنة الممتازة كانت تعتمد اعتمادا كليا على جهود الاستاذ وبحوثه ! وقد كتب رئيس محكمة الاستئناف الأسبق الأستاذ محمد محمود يعلن ذلك بجريدة الأهرام عقب وفاة الشيخ فيقول من كلمة مخلصة فى الرثاء :

« وقد كان المرحوم الشيخ عبدالمجيد سليم فى هذه اللجنة النجم اللامع والحركة الدائمة ، اذ كانت تعرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق بحثها وفحصها ، وعند ذلك يأخذ الراحل الكريم الكلمة فيتولى شرح الموضوعات والمسائل الواحدة بعد الأخرى، مستعرضا شتى الآراء ومختلف الصور فى كل مذهب من المذاهب . مقررا حكم الشرع ، ذاكرا رأى الأئمة المجتهدين والفقهاء المؤلفين ، مسايرا روح العصر ، متنقلا من فن الى فن ، وهو فى ذلك كله كالبحر المتدفق حتى اذا انتهى من جولته العلمية ومحاضرته الفقهية ، قامت اللجنة بالبحث والتمحيص واستنباط الحكم الملائم تمهيدا لاعطائه الصفة النهائية »

وان فقيها علامة تكون له هذه الفتوح التشريعية لجدير أن تيسر آراؤه للناس لتمد القانون الاسلامى بفيض غزير .

على أنك لو وجدت من رجال الفقه الاسلامى فى عصرنا الراهن من

ماثل الشيخ فى المامه التشريعى كالسيد محمد رشيد رضا والشيخ محمد بخيت المطيعى ، فلن تجد من فقهائنا المعاصرين من ماثله فى قوة الايمان ومجابهة الباطل والاعتزاز بالله وحده ! وتلك عجيبة الرجل حقا ! فقد كان حلقة ثمينة فى سلسلة ذهبية تجمع نخبة مؤمنة من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأوذوا فى سبيله فما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم وارتفعت أصواتهم مجلجلة رنانة تندد بالطغيان السافر وتدعو الى الحق الصريح ! فقد قدر على الأستاذ أن يعيش فى زمن منافق لئيم يسوده استعمار خارجى من أوروبا الظالمة ، وداخلى من فساد القصر وتشاحن الحزبية ، وكان الظن بأبناء الأزهر أن يناوئوا جميعا ذلك الفساد فى شتى وجوهه ، وأن يحاربوا الطغيان فى مختلف صوره ، ولكنهم لم يكتفوا بالسكوت على الباطل بل خب بعضهم ووضع فى الحزبية المتناحرة جنبا عاد على العلماء بالنكبة والخذلان وعلى الطلاب بالخيبة والهوان !

ولم يسكت الشيخ كفيره . بل جاهر بالدعوة الى نبذ الحزبية وعارض فى صراحة واضحة من يرون مشايعة القصر ومسايرته مهما كان لهم من السطوة والنفوذ . ورأى أن واجبه الألزم يفرض عليه أن يكون ممن يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فأعلن رأيه فى السياسة الطائشة ، وتزعم فئة من ذوى الاتجاه الصائب والثقافة اللامعة والحفاظ الغيور ، وهى اليوم بفضل الله تسيطر على الأزهر وترسم له الطريق للتوثب والنهوض، فكافح بها البغى ما استطاع! وقد دفعته رجولته النادرة أن يعلن رأيه الصريح فى القصر الباغى والحزبية العمياء وهو شيخ للأزهر دون أن يحرص على منصب زائل أو يخاف مغبة متربصة ، فقال فى حديث طويل نشرته جريدة الأهرام فى ذكرى الاستاذ المراغى تحت عنوان « امام يحيى ذكرى امام » .

« لقد كنت أنا والشيخ المراغى صديقين حميمين ، كلانا يحب صاحبه ، ويقدر فيه مواهبه ، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة . ولكننا مع ذلك اختلفنا بعد لأى من مشيخته الثانية للأزهر، وكان خلافنا معروفا للخاصة والعامة من الازهريين ، وسببه الجوهرى ميله رحمه الله الى ناحية السياسة الحزبية ، وشدة نفورى من ذلك، فانى أرى أن الخير كل الخير أن يتجنب العلماء السياسة الحزبية ومتاعبها التى تفضى الى ما لا يحمد من العواقب » .

ومعنى هذا الكلام بصريح العبارة أن الاستاذ المراغى قد دفع بالأزهر الى تأييد القصر ومعاونة من يرتضيه من رجال الأحزاب . وليست تلك مهمة رجل الدين فالأجدر به أن ينأى عن مشايعة ذوى

المآرب المريضة والأهواء المفرضة من النـاس . وقد هاج القصر وماج لذلك الحديث الجرىء . وسلط من أذناب الكتاب من يهاجمون الشيخ على صفحات الجرائد ويزعمون دون استحياء انه يتجنى على سلفه الراحل ! وكأن الحديث يدور على قضية غامضة تختلف حولهـا آراء الباحثين ، وليست مأساة معاصرة يعرفها الكبير والصغير على السواء .

ولم يكن القصر يجهل ما للشيخ من صلابة فى الحق . واباءللضيم فقد ذاق فاروق من حملاته السافرة قبل المشيخة وبعدها ما أرق مضجعه وأزعج هدوءه . واذكر أن مجلة المصور قد نشرت تحتعنوان « مات الشيخ عبدالمجيد سليم » بتاريخ (١٤ اكتوبر سنة ١٩٥٤) مقالا منصفا عن الأستاذ الأكبر فألمت بكثير من مواقفه الرائعة .

وكان مما ذكرته أن الشيخ اذ كان مفتيا للديار المصرية تلقىسؤالا عن حكم الشرع فى رجل يراقص النساء ويشرب الخمر فى الحفلات ويرتكب أعمالا يحرمها الاسلام . وقد أدرك المفتى أن المقصود بهذا السؤال هو فاروق . فقد كانت الجرائد آنئذ تتحدث عن حفلاتماجنة تقيمها (شويكار) احتفالا بمسرته ، ولكنه لم يتراجع ، بل أصدر فتوى جريئة وصف فيها المسئول عنه وصفا يشين ويجرح. ويقول المصور : ان الدوائر الرسمية والسياسية قد اضطربت لهذه الفتوى واتصل الملك السابق بالشيخ المراغى فطلب اليه أن يطلع منذ الآن على كلفتوى يصدرها الشيخ عبدالمجيد قبل السماح لها بالذيوع !

ولم تكد الأيام تمر على تربص حذر من القصر بالشـيخ وآرائه حتى حاول فاروق أن يعين المغفور له الاستاذ مصطفى عبدالرازقشيخا للأزهر . وكان القانون الرسمى للمشيخة لا يسمح بذلك لأن الاستاذ عبد الرازق على جلالة خلقه ووافر علمه وادبه ، لم يكن عضوا فىجماعة كبار العلماء .

كما أن تعيينه فى هذا المنصب الخطير ، يعتبر دفعا جديدا للأزهر فى اتون السياسة الحزبية المتصارعة !! لأن الرجل عضو بارز فى حزب الأحرار الدستوريين ووزير ممتاز من كبار وزرائه ، وله فى السياسة هوى خاص يميل مع قوم دون آخرين ، فلا بد أن يكون عصره امتدادا محتوما لسياسة الاستاذ المراغى فى الانضمام الى القصر وشيعته !

لذلك نجد الاستاذ عبدالمجيد نصر الله وجهه يرفض فى عنفهذا التعيين ! وقد استدعاه النقراشي (باشا) كما ذكرت مجلة المصور وحاول أن يغريه بالمال اذ كان للشيخ عدة آلاف من الجنيهات بوزارة المالية ، مكافأة شخصية علىمشيخته للأحناف بالأزهر مدة طويلة، وقد تجمدت تلك المرتبات بالوزارة لاعتراضها على أن يجمع الشيخ بين مرتبين فى

وقت واحد ! فلوح له رئيس الوزراء بصرف تلك الألوف المتجمعةسريعا اذا وافق على تعيين مصطفى عبدالرازق ففضب الشيخ فىوجهه غضبة ازعجته وصاح به فى انفعال : اتريد ان تساومنى فى الحق ؟ ثم خرج ساخطا دون استئذان ، ولم ييأس القصر بعد ، فأوفد اليه بعضرجاله يهدده بالعاقبة ويقول فى صراحة : ان معارضة الملك خطر عليك ! فقال الشيخ فى ايمان : أسيحول هذا الخطر بينى وبين المسجد ؟! فخجل رسول القصر ولم يجب ! وكان الشيخ جريئا حين أعلن نبأ هذه المحادثة بامضائه فىبيان أصدره للناس ! وهى منالذيوع بحيث لايجهلها مصرى واحد عاصر هذه الأحداث .

أما حملته على استهتار الملك ومجونه ، فقد كانت شديدةمنكرة. ففى الوقت الذى تسابق فيه الزعماء الى تمجيد فاروق وتقديسه، كان شيخ الازهر يصيح صيحته الغاضبة :

« تقتير هنا وتبذير هناك » منددا بما ينفقه الملك فى كابرى من الكنوز على الخمور والقمار والنساء ! وكان رجال الحكومة اذ ذاك لا يسالون الشيخ لاعتراضه الصريح على تدخلهم المنكر فى شئونالأزهر وتعيينهم اثنين من أنصارهم فى مجلسه الأعلى ليقوما بتنفيذ رغباتهم الحزبية مهما أجحفت بالعلم والعدالة والمساواة ! فانتهزوا الصيحة الغاضبة وطاروا بها الى فاروق فأقيل الأستاذ من منصبه . وقد ثبتت محبته فى القلوب ، وما ضره عزل دنيء عن منصب رسمى يسمو بالشيخ دون أن يسمو به فهو من جلالة مكانه فوق المناصب دون استثناء !!

تلك دروس مثالية يجب أن تلقن للناشئة منأبناء الاسلام، لتكون موضع الأسوة الحسنة والقدوة المصطفاة . وهى فى حاجة ماسة الىمن يتناولها بالدرس والتحليل فى مؤلف مبسوط .

فهيهات أن يتسع المقال الواحد لغير السرد السريع ! على أنه لايحيط بكل ما كان ، بل ينتخب من الحوادث المتزاحمة ما يغنى عن سواه . ولن أغفل هنا موقفه الخالد من الملك فؤاد فقد حاول ان يستبدل ببعض ممتلكاته الجديبة ، أرضا مخصبة من أملاك الاوقاف . وتلمس الفتوى الميسرة من عبد المجيد فأعلن الاستاذ فى تحمس صادق أن الاستبدال باطل لانه لا يجوز لغير مصلحة الوقف ! وهى هنا مفقودة ، بل ان الخسارة متحققة ، وقد ملأ رحمه الله فتواه الرائعة بنصوص ثاقبة وافية قطعت كل اعتراض ، وتركت طاغية القصر من أطماعه المحرمة فى مأساة نكراء .

ان الرجل الأبى الذى يحتقر الآلاف المتجمدة فى سبيل مبدئه ،

ويضحى بالمنصب الرائع اذا جر الى ضياع مثله ليحرص كل الحرص على أن تكون موارد رزقه طاهرة مطهرة ، حتى فيما ضؤل وهان ! فقد ذكر أستاذى الكبير أحمد حسن الزيات بأحد أعداد الرسالة أن ادارة الترام قد أهـدت الى فضيلته تصريحين بالركوب فى الدرجتين الأولى والثانية ، أولهما للشيخ وثانيهما لخادمه ، فحرم الأستاذ على نفسه أن يستبيح شيئا ما دون مجهـود متكافىء وقد تسرع خـادمه فاسـتغل التصريح مرة واحدة ! ففضب الشيخ وركب عربته حتى وصل الىمحطة الترام واشترى تذكرة ثم مزقها دون استعمال ، ليؤدى عن الخـادم ثمن ما استهلك !! وللباحث النفسى أن يجد فى هذا التصرف المتحرز مايكشف عن أطواء تلك الروح الطاهرة التى تتجنب الشبهات وتحرص على أن تكون مثالا مبرأ للمسلم الورع الأبى ونبراسا وضيئا للحقيقة المؤمنـة بشتى صفاتها الساحرة من جلال العلم وعظمـة الحق وقوة الايمان ، ويا لها من صفات .

مواقف خالدة لعلماء الأزهر

يداب كثير من المغرضين على اتهام الازهر ، واختلاق المقالب الشائنة لرجاله ، وهم اذ يلصقون التهم الآثمة بهم الصاقا يتجافى عن الحق والانصاف ، انما يهاجمون الاسلام نفسه من وراء ستار ليحققوا مآرب خبيثة لا يقدرون على البوح بها علانية ، ولا جرم فقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم اكبر .

وأعظم تهمة يمهدون لها بالعلل والأسباب هي دعوى تزلف الأزهريين للرؤساء من ملوك ووزراء والسير في ركاب أولى الأمر مهما اعتسفوا الجادة وتنكبوا السبيل .

والعجيب المدهش حقا ان الذين يلوكون بأقلامهم هذا الهراء في صحفهم الماجنة هم انفسهم الذين كانوا يدقون الطبول في مواكب الفساد ، وحين تغيرت الاوضاع بعد الثورة اخذوا يتنصلون من فضائحهم المخزية ويتصيدون الشوائب للبررة الأتقياء حتى ليصدق عليهم المثل القائل « رمتني بدائها وانسلت » !

ونحن اذا تصفحنا مواقف تاريخنا الحديث نجد لأعلام الازهر في الذود عن الحق والوقوف في وجه الباطل آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر وتؤكد وراثة الأنبياء في قوم يخشون الله حق خشيته، ومن المؤسف أن هذه المواقف الخالدة ـ على كثرتها المشرفة ـ لم تجد من احصاها في كتاب أو دونها في تاريخ ، اذ أن الرهبة المرعبة من أصحاب النفوذ ساعدت على كتمان هذه المجابهات الصريحة ، الا ما تناثر على الأفواه من أحاديث تتخذ الحيطة الكاملة في ترددها وتداولها بين الناس ، ومع هذا التكتم الصريح فقد وعت ذاكرة التاريخ مثلا رائعا لجماعة مؤمنة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من العلماء الأفذاذ !

وها نحن أولاء نسطر في مقالنا بعض هذه الروائع الغالية ليعلم من لم يكن يعلم أن من علماء الأزهر من حملوا مشعل الحق في الدعوة الى الله فأثبتوا لذوى الانصاف أن الروح القرآنية التي الهمت سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعمرو بن عبيد والأوزاعي وابن حنبل والعز بن عبدالسلام في القديم هي نفسها الروح القوية التي سرت في نفوس علماء الأزهر فواجهوا الباطل بلسان صدق مبين ونحن نسجل

بعض هذه المفاخر لا لنقول أولئك آبائى بل لنقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .

لقد حكم محمد على مصر فى فترة عصيبة من تاريخها القريب فمن الذى أحصى عليه أخطاءه وسجل نقائصه ، حتى تعرض لاقصى ضروب العسف والاضطهاد ؟ ان العالم الازهرى عبدالرحمن الجبرتى قد كان أول من سجل على الوالى الفاشم نوائبه وأخذ يتنقل بين المدن والقرى فارا من عذاب أليم يتهدده من أولى الأمر ، وقد تعرضت أسرته للاغتيال والحبس والاهانة . وظل المؤرخ الكبير يخط للاجيال المقبلة كلمةالحق سافرة حميدة دون أن يقعد به تحرش وارهاب . ولو اراد الرفعةوالجاه لسار فى موكب النفاق يختلق المحامد ويطلق بخور الثناء .

وقد اختلفت الآراء فى خاتمة حياته وأرجحها المؤكد انه لقى مصرعه مستشهدا فى سبيل الرأى الصريح ـ مما بسطنا الحديث عنه بالتفصيل فىمقال آخر ـ ومع أنه كان فى صدر شبابه صديقا لعلى بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب فقد سجل عليهم فى تاريخه العظيم ما رآه من المظالم ، وارتفع بالتاريخ الى مرتبة لا تجنح الى الاهواء والميول . فليذكر صعاليك الصحافة ما كتبوه بالأمس فى صحائفهم عن فاروق ليعرفوا من يسير مكبا على وجهه ومن يمشى سويا على صراط مستقيم .

هذا هو الجبرتى العالم الازهرى ابن العالم الازهرى ! وهناك معه عشرات من علماء الازهر جابهوا الباطل علانية دون استخذاء فلم تأخذهم ملامة فى جنب الله وبقيت احاديثهم العاطرة تعبق فى رحاب الاجيال ! .

هناك العالم الازهرى الجرىء الاستاذ حسن العدوى وقد شهد له الزعيم أحمد عرابى فى مذكراته أنسياسية شهادة تزن ما على الارض من ثروة ومتاع ! فقد كان وزملاءه الأزهريين فى طليعة رجال المؤتمر الوطنى الذى أصدر قراره التاريخى بعزل توفيق وتكليف الزعيم أحمد عرابى بالدفاع عن الوطن بعد أن قرئت على المجتمعين فتوى ازهرية اسلامية بمروق الخديوى وخيانته ، فكان لها اكبر الاثر فى هيجان الشعور المصرى ضد الحاكم الخائن .

وحين انتهت الثورة الى خاتمتها الأليمة تقدم الشيخ العدوى الى المحاكمة بجنان ثابت ووقار مهيب فسأله الرئيس : هل افتيت بعزل الجناب الخديوى ؟ فأجاب من فوره : لم تصدر منى فتوى بذلك ومع هذا فاذا تقدمتم الى بمنشور يتضمن هذه الفتوى فسأوقعه . ومافى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديوى يستحق العزل لمروقه عن الوطن والدين ! يقول هذا وقد شحذ الباطل أسنته وحرابه لينكل

بالاحرار الباسلين ، فتتضاءل فى تقديره كل عقوبة ظالمة تتخيلها الأذهان ويرفع هامته فى ساحة المحاكمة عالية شماء !

هذا العالم الأزهرى الورع قد طلب منه فى أثناء زيارة السلطان عبد العزيز لمصر ضيفا على اسماعيل أن يقوم بتقليد رسمى كريه فينحنى الى الارض ثلاث مرات يأخذ فيها السلام الى رأسه ثم الى فمه ثم الى صدره ويخرج موجها صدره الى الخليفة وظهره الى الباب !

وتوقع ذوو الامر أن يفعل ذلك ولكنه اعتقد فى قرارة نفسه أن هذه التقاليد آثمة لاتنبع من روح الدين بل تعيد الوثنية ثانية فى أمة شرفها الاسلام بالتوحيد والمساواة ، فسخر بكل ماسمع ، ودخل الى الخليفة مرفوع الرأس قائلا السلام عليك يا أمير المؤمنين ثم ابتدره بالنصيحة ودعاه الى تقوى الله والخوف من عذابه ! وهاج الخديوى واضطرم الغيظ فى صدره ولكن السلطان يعجب بما يرى ويخلع على الرجل حلة ثمينة ويقول للحاضرين : « ليس لديكم عالم سواه » (١)

هذه الروح الكريمة التى نفثها القرآن فى النفوس لم تقتصر فى أحلك عهود الطغيان على فرد او اثنين بل غمرت أناسا كثيرين عرفوا الله فعرفهم ، وان كانت مواقفهم الخالدة فقدت المؤرخ الجرىء فقد تناقلتها الأفواه لسانا عن لسان وحملت الصدور ما خافت أن تعلنه الطروس ومن الذى لايسمح بفضيلة اسماعيل وقد توالت هزائم جيوشه فى الحبشة وأمر العلماء بقراءة البخارى فما غيرت شيئا من الموقف فصاح بالعلماء : لستم من السلف الصالح فان الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا ! فأجابه أحد العلماء : لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى « لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » ، فانكسر الخديوى وسأل : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء ؟ فقال العالم : أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يحل الربا ؟ أليس شرب الخمر مباحا ؟ أليس الزنا برخصة ؟ أليس كيت وكيت ؟ واندفع يذكر ماشاع بمصر من المنكرات ـ واسماعيل يسمع ويكظم ـ غير ما وجل ولا هياب (٢)

وهناك العالم الجليل الاستاذ حسن الطويل العالم الازهرى فقد كان من عزة النفس والثقة بالله على جانب رفيع ممتاز ! دخل عليه رياض باشا وهو يدرس لطلابه بدارالعلوم فما غير موقفه أو بدل جلسته وحين هم

---

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية في الاسلام للاستاذ سيد قطب ص ١٦٨ وقد أل أيضا بوقف الشيخ حسن الطويل من مقابلة توفيق

(٢) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٠١ .

الزائر بالخروج قال له الاستاذ : لماذا لا أكون وزيرا معكم يا باشا ؟ فدهش الزائر وقال : أى وزارة تريد ؟ فقال : وزارة المالية لاستبيح من أموالها ما تستبيحون (١) !! وكانت لطمة أليمة توجه الى حاكم أرستقراطى لم يألف التهكم والاستخفاف! فخرج ثائرا مهتاجا واستدعى ناظرالمعارف على مبارك ليعجل بفصله منوظيفته ولكن يدا أعلى من يد رياض باشا تقف فى وجهه فيتراجع عن غطرسته العاتية مدحورا وقد آثر ألا يزور مدرسة أو معهدا بعد ذلك !

هذا الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل ، قد طلب منه أن يرتدى ملابس خاصة ليقابل بها الخديو توفيق · وحان الموعد المرتقب فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية ، ثم قدمها للخديو قائلا فى بساطة : ان كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذان ، وان كنت تريد حسن الطويل فهأنذا حسن الطويل !! ثم قال الشيخ لجلسائه: كيف أتجمل لتوفيق بلباس لا أتجمل به لربى فى الصلاة ؟ وهذا لعمرى منطق اليقين الجازم والايمان العجيب !!

وهناك الاستاذ الانبابى شيخ الجامع الازهر ، دخل عليه اللورد كرومر محييا فصافحهالاستاذ من جلوس فاستعظم اللورد ما صنعوسأله: ألست تقوم للخديوى ؟ فقال : نعم لان الخديوى ولى الامر، وهو منا ولست مثله لدينا فى شىء (٢) ولم يقل الشيخ ذلك تزلفا للخديوى فهو العالم الجرىء الذى جابه توفيقا وأفتى بعزله ومروقه دون تحفظ أو اكتراث · ولقد كان كرومر فى منعة عزيزة يتضاءل معها جاه خلفه الأخير « كليرن » ومع الفارق البعيد بين الاثنين فقد رأينا رؤساء الحكومات ينكمشون ويتضاءلون جوار مايلز لامبسون ، ثم لايجدون من صحافة اليوم غير المديح والتنويه ·

وهناك الاستاذ الشيخ النواوى شيخ الجامع الأزهر · فقد أرادت حكومة مصطفى فهمى أن تضعف القضاء الشرعى اجابة لرغبة المعتمد البريطانى · فدعت لتعديل اللائحة الشرعية مستندة الى نفوذ المستعمر كعهدها فى حكمها الطويل البهيم ! ولكن الشيخ النواوى يحمل على المشروع بكلمة موجزة فتطير فى الامة كل مطير ويتأهب الكتاب لنقده نقدا جارحا فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير(٣) ولو كان

---

(١) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨١ .

(٢) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨٢ .

(٣) مجلة الرسالة ص ١٦٣ السنة ١٥ نقلا عن فضيلة الاستاذ فرج السنهورى .

هذا الموقف لزعيم سياسى لظلت صحفنا « المنصفة » ترددد بين الحين والحين ·

ومن المدهش العجيب أن الذين يكتبون عن الاستاذ الامام محمد عبده يعز عليهم أن يعترفوا بمواقفه الخالدة من الحكام ويكثرون الحديث عن عمله وجهاده فى التربية والاصلاح ونشاطه الاجتماعى بل ربما اتهموه آثمين بمحاباة الانجليز والدعوة الى الاحتلال ! أما موقفه الخالد فى الثورة العرابية ونفيه الى الخارج فلا يحتاج الى تسجيل · وأما مواقفه المتكررة من عباس فيجب أن يسحب عليها ذيل العفاء !

لقد أراد الخديوى السابق أن يجعل أموال الاوقاف بقرة حلوبا تدر عليه الأرباح من أيسر طريق . فوقف الامام فى وجهه وقفة كشفت مطامعه للعيان · وأدت الشحناء دورها فى قلب عباس فتعقب الامام فى كل طريق ناصبا مكايده الخاتلات !

لماذا عارض الخديوى اصلاح الأزهر ! ولماذا عارض اصلاح القضاء ؟ السبب واضح ، فالأستاذ الامام قد رسم المنهج . وأعد الخطة ، وأثار الرأى العام ، فلابد أن ترجع مشروعاته بالخيبة والاخفاق ·

لقد كتب الأستاذ الامام عن (محمد على رأس الأسرة الحاكمة) مقالا جريئا يبرزه على حقيقته أمام القراء ، فكان ثانى كاتب ــ بعد الجبرتى ــ فى مصر يصور بالعربية حقيقة هذا الحاكم السفاح ، وفى الوقت الذى احتفل فيه أساتذة النفاق بالذكرى المئوية «لساكن الجنان» منذ قريب!! كان هناك أزهرى ثالث هو العالم الأزهرى الداهية محمد الغزالى ينقل كلام الشيخ محمد عبده عن محمد على فى كتابه «تأملات فى الدين والحياة» ثم يشفعه بالتفسير والتوضيح !

ونحن ندعو القراء الى مطالعة ما كتبه محمد عبده والغزالى عن محمد على ، ثم ليقرءوا الأعداد الخاصة من الصحف والمؤلفات الضخمة من الكتب التى صدرت فى الذكرى المئوية (العزيزة!) تملقا لفاروق وارضاء للباطل وحينئذ يعرف القارئون من المتزلف المتملق ، أنحن أم هؤلاء !

وأخيرا تعالوا بنا الى العهد القريب لتعلموا ما صنع مفتى الديار المصرية السابق الشيخ محمد بخيت المطيعى رحمه الله فقد لطم الاستعمار لطمة قاسية حين أصدر فتوى دينية وطنية فى مقاطعة الانجليز فسرت مسرى النار فى الهشيم وبددت مانسج من الأحلام والامنيات ولقد كان الشيخ بخيت أكبر مفت للاسلام فى عصره ورفض ثروة مغرية قدمت اليه حين أصدر فتوى اسلامية فى وقف من الأوقاف قائلا كلمته الجليلة (العلم فى

الاسلام لا يباع) ولعمرى أن هذه الجملة الصغيرة على ايجازها العجيب قانون اسلامى خالد يجب أن يتردد ويذاع ليؤمن به المسلمون ويعملوا به .

هذه بعض المواقف الرائعة فى تاريخ الازهر، ومن المؤسف ان يتعاون المأجورون على طمسها واخفائها ، فيحولوا دون شرف خالد للتاريخ المصرى يوشك أن يندثر بلا تسجيل !! واذا كان منهم من يريد أن يطفىء نور الله فالله متم نوره ، ولن يعدم الحق لسان يقول : « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
مقدمة	٤
سعيد بن المسيب يتحدى الخلافة	٧
سعيد بن جبير يثور على الحجاج	١٣
يحيى بن يعمر بطل صريح	٢١
عمرو بن عبيد عالم مثالى	٢٧
أبو حنيفة لا يكترث بالمنصور	٣٣
عظمة مالك بن أنس وإباؤه	٣٨
يعقوب بن السكيت يستشهد	٤٣
أبو جعفر بهلول يظهر الباطل	٤٨
محمد بن بشير يرفض شهادة الحاكم	٥٤
المنذر بن سعيد يتحدى الناصر	٥٩
العز بن عبد السلام سلطان العلماء	٦٤
محيى الدين النووى يتحدى الظاهر بيبرس	٧٠
ابن دقيق العيد فقيه شجاع	٧٥
ابن تيمية يصدع بالحق	٧٩
علماء الأزهر يرهبون المماليك والأتراك	٨٤
عبد الرحمن الجبرتى يهاجم الطغاة	٨٨
جمال الدين الأفغانى باعث الشرق	٩٩
عبد المجيد سليم بقية السلف الصالح	١٠٦
مواقف خالدة لعلماء الأزهر	١١٣

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد — روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤